

أدبيات



أدب الرحلة

تأليف: الدكتور حسين نصار





مكتبة لبنان

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

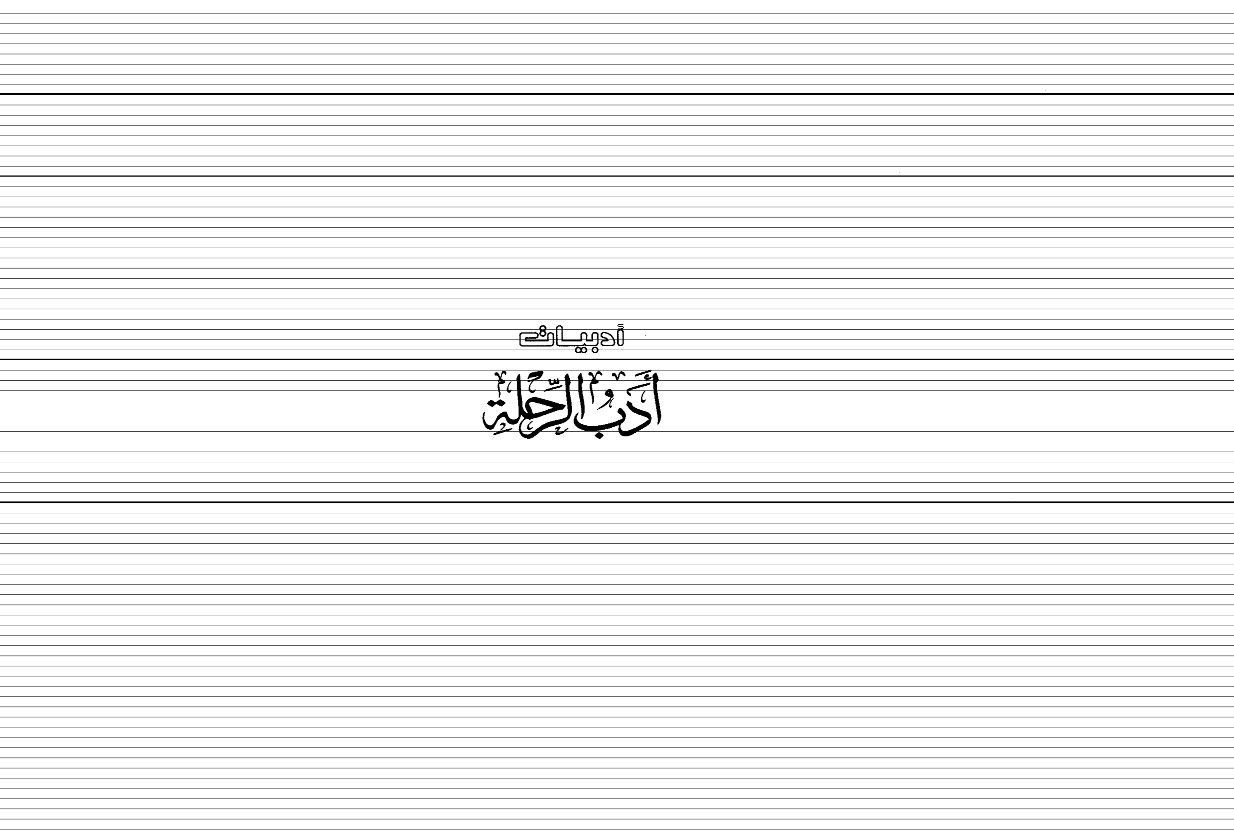
١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي – الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩١

رقم الإيداع : ٤٨٤٣ / ١٩٩١
الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ – ١٦ – ٠٠٢٢ – ٢

رقم الكمبيوتر 01 R 160352

طبع في **دار نوبار للطباعة** – روض الفرج – شبرا – القاهرة


أدبيات
أدب الرحلة

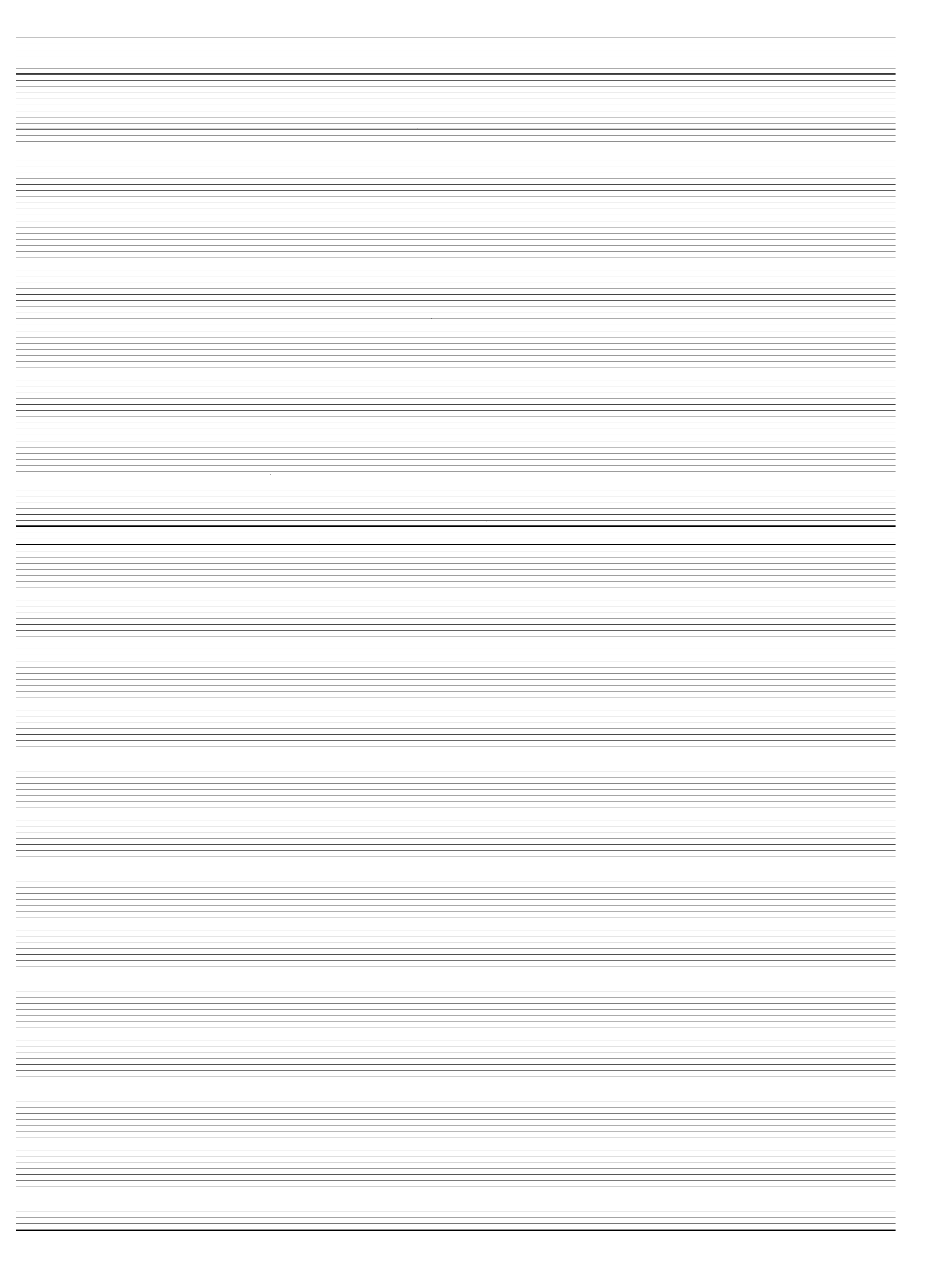


إشراف الدكتور محمود علي مكي

أستاذ الأدب الأندلسي – كلية الآداب بجامعة القاهرة

وعضو مجمع اللغة العربية

المحتويات



مُقدِّمة

الحركة واحدة من خصائص الكائن الحيّ ، تكون أبسط ما تكون في الكائنات الدنيا ، وتتدرّج في التّمام مع تدرُّج هذه الكائنات في الارتقاء ، حتى تصل إلى الانتقال من موضع إلى آخر ، وهو ما سمّته اللغة : الرِّحلة .

وقد يقصُر مدى الرِّحلة حتى تكون انتقالاً من موضع إلى آخر مجاور له ، كما تفعل الطيور بين أعشاشها وحقول الثمار أو مخازن الغلال ، والوحوش بين أوكارها ومواطن فرائسها . وقد يطول حتى تكون انتقالاً من قارة إلى أخرى .

ولا أشكُّ أن كثيراً من القرّاء شاهد أو سمع أو قرأ عن هجرة أصناف من الطيور بين المناطق الباردة والدافئة في الشتاء والصيف ، مثل السمّان وأمثاله ممّا يتنقل بين أوربّا والساحل الشماليّ من إفريقيا .

وأعتقد أن بعض القرّاء ألمّوا بعض الإلمام برحلة أنواع من السمك من مواطن عيشتها إلى مقارّ بعيدة كلَّ البعد للتّوالُد ، مثل السلمون الذي يقطن المياه المالحة الدافئة ، فإذا حان وقت التناسُل انتقل إلى المياه الباردة – قرب ألاسكا بخاصّة – فوضع بيضه هناك في المياه العذبة . وتقوم برحلة مماثلة ثعابين السمك التي تنتقل من مواطنها في المياه العذبة ، وتقطع البحار والمحيطات ، إلى أن تبلغ جزيرة برمودة أو غربيَّ الإنديز في أمريكا الجنوبيّة ، فتضع بيضها في المياه المالحة ثمّ تموت . وعندما ينفلق البيض يعود كلُّ نوع من الأولاد إلى موطن أمّه لا يضلُّ عنه .

ولم يختلف أرقى الحيوانات – الإنسان – في مبدإ ظهوره على الأرض عن هذا اختلافاً كبيراً ؛ فقد عاش زمناً على الانتقال من مقرّ حياته وأسرته إلى غيره

سعياً وراء الطعام ، أيْ ما يصيده من الحيوانات ، وذاك عصر الصيد .

وعندما تخلّص الإنسان من عصر الصيد كان تخلّصه إلى عصر الرعي ، أي العيش على ما استطاع أن يستأنسه ويستسيغ طعمه من حيوانات . وعرف حينئذ شيئاً من الاستقرار ، ولكن ليس كلّ الاستقرار ، وإنّما عرفه في العصر التالي : عصر الزرع .

وإذاً فالرحلة أمر طبيعيٌّ عند الإنسان ، عرفه منذ عرف الحياة على هذا الكوكب .

لا عجب – إذاً – أن يكون الصيد ، والرّحلة من أجله من أوّل الأمور التي تحدّث عنها هذا الإنسان إلى أسرته ثمّ إلى مجتمعه ، مصوّراً ومباهياً ومتأنّقاً في سردها عندما عرف إلى التأنّق سبيلاً ؛ ثم كانت من أوّل ما دوّن من حديثه مع أسرته ، أو ما سمّته العربيّة فيما بعد : السّمر .

فكان ممّا وصل إلينا عن الفراعنة : رحلة رجال الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت (الصومال في الغالب) ، ورجال الملك نخاو حول إفريقيا ، والأمير سنوحي إلى فلسطين ، ورحلة – أو قصّة – جزيرة الثعبان .

ومن الإغريق وصلت إلينا رحلات هيرودوت ، وبعوث الإسكندر المقدونيّ لاستكشاف الخليج العربيّ والبحرين ؛ وكذلك وصلت إلينا أخبار رحلات عند الأمم الأخرى . هذا مع اقتصارنا على الرّحلات السلميّة .

فإذا انتقلنا بأبصارنا إلى العرب قبل الإسلام ، وجدنا لديهم رحلتي الصيف والشتاء التّجاريّتين إلى الشام واليمن ، و وجدناهم يردّدون الحديث عن رحلات تُبّع الأكبر في مشارق الأرض ومغاربها حتى أعلن بعض العلماء أنه ذو القرنَيْن المذكور في سورة الكهف من القرآن الكريم . و وجدنا أخباراً مُبْهمة عن رحلات لهم إلى الساحل الغربيّ من الهند والساحل الشرقيّ من إفريقيا .

وتكثر آثار هذه الرّحلات الجاهليّة وأمثالها في ألفاظ اللغة العربية والقرآن

والحديث والنقوش والآداب الخاصّة والشعبيّة : منثورة ومنظومة . ولكنّنا لن نتعرض لها بالحديث ، ونقصره على الرّحلات التي كانت بعد الإسلام .

ولن أقف بعد ذلك عند زمن ، بل أستمر في التناول إلى العصر الحديث ، ولكنّ هذا العصر أنتج من الرّحلات أكثر مما أنتجت القرون السابقة مجتمعة ، مما يجعل الإحاطة بهذا الإنتاج عسيرة ، وتحتاج إلى جهود كبيرة ، و وقت طويل ؛ ولذلك ستوجّه العناية الكاملة إلى العضور السابقة ، وأكتفي في العصر الحديث باللمسات . ومن أسباب ذلك أن الكتاب لن يقتصر على الرّحلات التي خرجت من قطر ما أو انتهت إلى قطر أو كتبها أبناء قطر ، وإنّما سيشمل جميع الأقطار التي أسهمت في النتاج العربيّ .

القاهرة في ٢٨ فبراير ١٩٩١ **حسين نصار**

الفصل الأول

دواعي الرّحلة

يحسن بنا أن نقسّم هذه الدواعي قسمين : دواعٍ هيّأها المجتمع فيسّرت الرّحلة لمن يريد أن يقوم بها وشجّعته عليها ، وهذه نسميّها « مُيسّرات الرِّحلة »؛ ودواعٍ شخصيّة دفعت كل واحد من الرحّالة على حدة إلى أن يقوم برحلته ، وهذه نسمّيها « أسباب الرّحلة » .

(أ) مُيسّرات الرّحلة

نستطيع أن نصنّف هذه المُيسّرات على النحو التالي :

١- حثّ الإسلام على السياحة لأسباب متعدّدة ، مثل التأمّل في المخلوقات ، والاتّعاظ من آثار الأمم البائدة ، فوردت في القرآن عدّة آيات تقول: ﴿ فسيروا في الأرض ﴾ (٣ / ١٣٧) أو ﴿قل سيروا في الأرض ﴾ (١١/٦ ، ٦٩/٢٧ ، ٢٠/٢٩ ، ٤٦/٣٠) أو ﴿ أ فلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ (٤٦/٢٢) أو ﴿ أ فلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت ﴾ (١٧/٨٨-٢٠) . ونسب بعض العلماء إلى النبيّ ﷺ أنّه قال : « اطلبوا العلم ولو في الصّين .»

ولم يقف الأمر عند هذا الحثّ ، بل شجّع الإسلام على السّفر بتخفيف بعض الأعباء الدينيّة – مثل الصوْم والصلاة – على المسافرين .

يُضاف إلى ذلك انتشار الإسلام في جميع أرجاء الخلافة الإسلاميّة – بل خارجها في الصّين مثلاً – وانتشار المذاهب الواحدة في العالم الإسلاميّ ، فكان المالكيُّ المغربيُّ يجد المالكيّة في المشرق . والفروق بين المذاهب السُّنّيّة بخاصة غير ذات خطر ، كثيراً ما تخطئها عيون المشاهدين . ومن ثمّ لم يكن

الرحّالة يحسُّ وحشة دينيّة عندما كان يتنقل في العالم الإسلاميّ ، إلا إذا انتقل من جماعة سنيّة مثلاً إلى أخرى شيعيّة .

٢- تيسير السّفر : معروف أن رقعة الدولة الإسلاميّة اتسعت اتساعاً كبيراً ، فامتدّت من حدود الصّين شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسيّ . ولما كان الحكم مركزيًّا ، فقد احتاجت العاصمة - سواء كانت دمشق أو بغداد - إلى معرفة أخبار الأقاليم الخاضعة لها على وجه السرعة . ولذلك عنيت الدولة بنظام البريد ، فمهّدت الطرق له ، وشيّدت المحطّات ، وأقامت على الطرق معالم تبيّن المسافات . يقول المقدسيُّ في وصف بعض طرق الشام : « وتأخذ من دمشق إلى الكُسْوة بريدَيْن ، ثمّ إلى جاسم مرحلة ، ثمّ إلى رفيق مثلها ، ثمّ إلى طبرية بريداً . وتأخذ من بانياس إلى قدَس أو إلى جبّ يوسف بريدين بريدَيْن...»[1]

ويصف ابن بطوطة البريد في الهند فيقول : « والبريد ببلاد الهند صنفان : فأمّا بريد الخيْل فيسمّونه الولاق (أولاق) وهو خيل تكون للسلطان في كلّ مسافة أربعة أميال . وأمّا بريد الرجّالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ، ويسمّونها الدّاوة . والدّاوة هي ثلث ميل ، والميل عندهم يُسمّى الكُروَة ، وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ، ويكون بخارجها ثلاث قباب ، يقعد فيها الرجال مستعدّين للحركة ، قد شدّوا أوساطهم ، وعند كل واحد منهم مِقْرعة مقدار ذراعَيْن بأعلاها جلاجل نحاس ، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى ، وخرج يشتدُّ بمنتهى جهده . فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهّبوا له . فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ، ومرّ بأقصى جهده ، وهو يحرّك المقرعة حتى يصل إلى الدّاوة الأخرى . ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يُراد منه .

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٩٠-١٩٢ .

« وهذا البريد أسرع من بريد الخيل . وربّما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند ، من فواكه خراسان ، يجعلونها في الأطباق ، ويشتدّون بها حتى تصل إلى السلطان . وكذلك يحملون أيضاً الكبار من ذوي الجنايات : يجعلون الرجل منهم على سرير ، ويرفعونه فوق رؤوسهم ، ويسيرون به شدّاً . وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان ، إذا كان بدولة أباد ، يحملونه من نهر الكَنك الذي تحجُّ الهنود إليه ، وهو على مسيرة أربعين يوماً منها .»[١]

٣- تيسير الإقامة : أ - تشيد أكثر الرِّحلات بمواقف الشعوب من الغرباء الذين يمرّون بهم أو يقيمون بين ظهرانيهم مدداً محدودة . تكتفي أحياناً بالكلمة العابرة مثل قول ابن بطوطة : « وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق ، وإيناس للغريب ، وقيام بحقّه ، فلا يستَوْحش فيما بينهم غريب.»[٢] أو قول العَبْدريّ في أهل تونس : « ناهيك ببلد لا يستَوْحش فيه غريب ، ولا يعدم فيه كل فاضل أديب . يبدءون من طرأ عليهم بالمداخلة ، ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة . فهم منهم بين أهل مشفق ، ورفيق مرفق . »[٣]

وتفصل أحيانًا القول فتبيِّن ما يفعلون من أجل الغرباء . قال ابن بطوطة « والأوقاف بدمشق لا تُحصَر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها ... أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم .»[٤] وقال عن أهل إحدى مدن الخنسا بالهند : « كانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً ، فكنّا كلَّ يوم وليلة في دعوة جديدة ، ولا يزالون يحتفلون في أطعمتهم ، ويركبون معنا كلَّ يوم للنزهة في أقطار المدينة. »[٥]

وكان من مهامِّ بعض الجمعيّات في الأناضول إكرام الضيف . قال ابن بطوطة وهو يتحدَّث عن جماعة الأخيَّة : « واحد الأخيَّة أخيٌّ على لفظ الأخ

(١) رحلته ، ص ٣٩٤ (٢) رحلته ، ص ١٨٦ (٣) أحمد رمضان : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٣٤٩ (٤) رحلته ، ص ١٠٤ (٥) رحلته ، ص ٦٣٩

إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . وهم بجميع البلاد التركمانيّة الروميّة ، في كل بلد ومدينة وقرية . ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج ، والأخذ على أيدي الظّلمة ، وقتل الشُرَط ومن لحق بهم من أهل الشرّ .

« والأخيُّ عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبّان الأعزاب والمتجرّدين ، ويقدّمونه على أنفسهم ، وتلك هي الفتوّة أيضاً . ويبني زاوية ، ويجعل فيها الفُرُش والسُّرُج وما يحتاج إليه من الآلات . ويخدم أصحابُه بالنهار في طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية . فإن ورد في ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يَرِد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدوّ ، وأتوا بعد العصر إلى مقدّمهم بما اجتمع لهم .»[١]

ولم يكن الحكّام أقل من شعوبهم إكراماً للغرباء ، ولقد أفاض ابن جبير في الثناء على صلاح الدين الأيوبيّ الذي قام برحلته في عهده . وكان من أسباب ثنائه موقفه من الغرباء ، ولا سيّما المغاربة ، قال عن مصر : « من مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه : المدارس ، والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطبّ والتعبُّد . يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ، ومُدرِّساً يعلّمه الفنّ الذي يريد تعلُّمَه ، وإجراء (= راتباً) يقوم به في جميع أحواله . واتّسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك . ونصب لهم مارستانا (= مستشفى) لعلاج من مرض منهم . ووكّل لهم أطبّاء يتفقّدون

---

(١) رحلته ، ص ٢٨٥

أحوالهم ، وتحت أيديهم خدّام يأمرونهم بالنّظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء ...

« ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السُّلطان عيَّن لأبناء السبيل من المغاربة خبزتَيْن لكل إنسان ، في كل يوم ، بالغًا ما بلغوا . ونصَب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله ، وقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة . وهكذا دائماً . ولهذا كلّه أوقاف من قِبَله حاشا ما عيَّنه من زكاة العين لذلك .»[١]

ومن الطبيعيِّ أن صلاح الدين لم ينفرد بهذه المنقبة وحده . قال ابن بطوطة: « من عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء، ومحبّتهم ، وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة . ومعظم خواصّه وحجّابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء . ونفَّذ أمره بأن يُسمّى الغرباء في بلاده بالأعزّة ، فصار لهم ذلك اسماً عَلَماً .»[٢]

(ب) ونعرف من الرّحلات أن معظم البلاد كانت تضمُّ الفندق والأكثر لنزول المسافرين بالأجر ، فنجد ابن حوقل مثلاً لا يتحدَّث عن أيّة مدينة إلا ذكر فنادقها ضمن مرافقها . ونجد ابن جبير يستهلُّ حديثه عن البلد الذي ينزل فيه بالمقرّ الذي حلَّ به . و وصف أحد فنادق مدينة جدة وصفاً مختصراً في قوله : « فيها فنادق مبنيَّة بالحجارة والطين ، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف، ولها سطوح يُستراح فيها بالليل من أذى الحرّ .»[٣] وقال ابن بطوطة في حديثه عن مصر : « ثم وصلت إلى الصالحيَّة ، ومنها دخلنا الرّمال . ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيليب والعريش والخروبة . وبكل منزل منها فندق – وهم يسمّونه الخان – ينزله المسافرون بدوابّهم . وبخارج كل خان ساقية للسبيل ، وحانوت يشتري منها المسافر مايحتاجه لنفسه ودابّته .»[٤]

---

(١) رحلته ، ص ١٥ (٢) رحلته ، ص ٣٩٥ (٣) رحلته ، ص ٥٣ (٤) رحلته ، ص ٥٤

وفي العصر الحديث وصف أحمد فارس الشدياق نظام الحجرات والشقق الذي كان شائعاً في أوربا ، فقال : « إن أهل الاستطاعة في لندرة (لندن) كالتجار وغيرهم يستأجرون بيوتاً ويستقلّون بها وذلك لصغرها ، خلافاً لديار باريس ؛ فلهذا كان صاحب العيلة يؤثر التنعُّم في بيته مع أهله على الخروج . أمّا الغرباء الذين ينزلون في الديار فيكون لأحدهم حجرة أو حجرتان فيمكنهم أن ينالوا طعامهم صبحاً ومساءً في منزلهم ، وذلك بأن يشتروا هم ما يريدون أكله ، ويأمروا الخادمة بطبخه ، ويعطوها شيئاً زهيداً في مقابل خدمتها ، وذلك أولى من أنهم يأكلون في المطاعم ، بل هو أنظف وأرخص . وفي هذه الخطّة تفضل لندرة باريس ، فإنّ الغرباء في هذه لا ينزلون إلا في منازل كبيرة مشاعة، فيضطرّون وقت الأكل إلى الخروج إلى أحد المطاعم ، فإنّ الأكل في المنازل غالٍ جدًّا . وهناك مزيّة أخرى ، وهي أنّ النزيل في لندرة يستأجر الحجرة في الأسبوع ، وفي باريس يستأجرها مُشاهرة . وإن كان مياومة ، لزم أن يدفع الضعف ضعفين ، وأيضاً فإنّ صاحب الدّار في لندرة يعطي النزيل مفتاح داره ، ليمكنه أن يدخل ويخرج أيّان شاء . وفي باريس لا بدّ من قرع الباب بعد نصف الليل ليفتح له البوّاب .

« غير أن النزيل في ديار لندرة لا يمكنه أن يخلو بالنساء في حجرته . وفي باريس لا حرج في ذلك ، فإن طلوع المرأة إلى حجرة النزيل فيها أهون من طلوع الخبز ، كما أن طلوع المرأة في لندرة إليه أصعب من طلوع الفرن بناره ... إلا أن أكثر المنازل هنا يقوم بخدمتها نساء حسان يغنين النزيل عن الخروج .

« ولأصحاب هذه المنازل غالباً عادة ذميمة ، وهي أنهم يستدلّون على مفاتيح عديدة متنوّعة ، يفتحون بها صناديق السكان ، حتى إذا علموا أن ليس في صناديقهم ما يقوم بأجرة المسكن أنذروهم الخروج .

« وهناك طريقة أخرى للسكنى في كلتا المدينتين هي أن من شاء أن يمكث طويلاً ، يستأجر حجرة أو حجرتين ، في دار من غير أثاث ، يؤثثها كما أحبّ . ولكن يلزمه في لندرة أن يفتح الباب لقاصده ، وينوّر له في الدّرج . وفي باريس لا يلزمه ذلك .»[1]

وواضح أن الشدياق أطال الحديث ، وأفاض في تصوير الحياة في داخل هذه المساكن ، وقارن بين المدينتين اللتين عُني بهما في كلّ التفاصيل .

(جـ) ومما يسّر لهم السفر والإقامة في غير أوطانهم توفُّر العمل والإذن للأجانب بالقيام به . ولعل المقدسي أدقُّ من صوّر ما كان الرحّالة يفعلونه في أثناء رحلاتهم لإتمامها وبلوغ الغرض منها . قال في أثناء حديثه عن كتابه : «‹ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ››: « ما تمّ لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلاد ، ودخولي أقاليم الإسلام ، ولقائي العلماء ، وخدمتي الملوك ، ومجالستي القضاة ، ودرسي على الفقهاء ، واختلافي إلى الأدباء والقرّاء وكَتَبة الحديث ، ومخالطة الزهّاد والمتصوّفين ، وحضور مجالس القُصّاص والمذكّرين ، مع لزوم التجارة في كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد ...

« ولقد سُمّيت بستة وثلاثين اسماً : دُعيت وخوطبت بها ، مثل مقدسيٌ وفلسطينيٌ ومصريٌ وخراسانيٌ ... ومقرئ وفقيه وصوفيٌ و وليٌ وعابد ... و ورّاقٍ ومجلّدٍ وتاجرٍ ومذكّرٍ وإمام ومؤذّنٍ وخطيبٍ ... وذلك لاختلاف البلدان التي حللتُها ، وكثرة المواضع التي دخلتها . ثم إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكُدْية (الشحاذة) وركوب الكبيرة . فقد تفقّهت وتأدبت ، وتزهّدت وتعبّدت ، وفقّهت وأدّبت ، وخطبت على المنابر ، وأذّنت على المنائر ، وأقمْت في المساجد ، وذكّرت في الجوامع ، واختلفت إلى المدارس ، ودعوت في المحافل ، وتكلمت في

---

(١) حسني محمود : أدب الرحلة ، ص ١٤٩ – ١٥١

المجالس . وأكلت مع الصوفيّة الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد ، ومع النواتي العصائد . وطُردت في الليالي من المساجد ، وسِحْت في البراري ، وتِهْت في الصحارى . وصدقت في الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً .

« وصحبت عبّاد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان . وملكت العبيد ، وحملت على رأسي بالزبيل . وأشرفت مراراً على الغرق ، وقُطع على قوافلنا الطرق . وخدمت القضاء والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء . وصاحبت في الطرق الفسّاق ، وبعت البضائع في الأسواق . وسُجنت في الحُبوس ، وأخذت على أني جاسوس . وعاينت حرب الروم في الشواني (سفن حربية) ، وضرب النواقيس في الليالي . وجلّدت المصاحف بالكِراء ، واشتريت الماء بالغلاء.»[١]

وكانت التجارة هي العمل المتاح للرحّالة في كلّ مكان وزمان ، فأقبل عليها أكثرهم ، بل كانت التجارة –كما سنرى– السبب الذي دفع كثيرين منهم إلى القيام برحلاتهم . وأمثل لذلك بعبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهريّ (٨٤٤–٩٢٠هـ/١٤٤٠–١٥١٤م) الذي كان يكسب نفقات أسفاره من التجارة في العبيد والبضائع المصريّة والمغربيّة .[٢]

واشتغل كثيرون من الرحّالة بالعلم والتعليم ، مثل موفق الدين عبد اللطيف ابن يونس البغداديّ (٥٥٧–٦٢٩هـ / ١١٦٢–١٢٣١م) الذي اشتغل في دمشق بالعلم وإقراء الناس بالجامع الأمويّ ، وفي القاهرة بإقراء الناس بالجامع الأزهر صباحاً ومساءً، وإقراء الطبّ في وسط النهار .[٣]

ولما كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللّواتيّ الطّنْجيّ المعروف بابن بطوطة (٧٠٣–٧٧٩ هـ/ ١٣٠٤–١٣٧٧م) من أسرة عُنيت بالعلوم الشرعيّة ،

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢، ٤٣ – ٤٤ (٢) زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ، ص ١٧٤ (٢) أحمد رمضان : الرحلة ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣

فقد تولّى القضاء في دهلي (دلهي بالهند) وجزائر ذيبة المَهَل (الملاديف الآن) .
قال يصف ولايته الأولى : « في بعض الأيّام بعث لنا خُداوند زاده غياث الدين ، وقطب الملك صاحب السند ، فقالا لنا : « إن خوند عالم يقول لكم : ‹‹ من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة ، أعطيته ذلك .›› فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم . وتكلّم أمير بخت بن السيد تاج الدين الذي تقدّم ذكره ، فقال : ‹‹ أمّا الوزارة فميراثي ، وأمّا الكتابة فشغلي ، وغير ذلك لا أعرفه .›› وتكلم هبة الله بن الفلكيّ فقال مثل ذلك . وقال لي خداوند زاده بالعربيّ :‹‹ ما تقول أنت يا سيّدي ؟›› وأهل تلك البلاد لا يدعون العربيّ إلا بالتسويد وبذلك يخاطبه السلطان تعظيماً للعرب . فقلت له : ‹‹ أمّا الوزارة والكتابة فليست شغلي ، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي . وأمّا الإمارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب .›› فلما بلغ ذلك إلى السلطان أعجبه كلامي... ثم خرج الحاجب فاستدعانا . فدخل خداوند زاده ضياء الدين – وهو أكبر الإخوة المذكورين – فجعله السلطان أمير دار ، وهو من الأمراء الكبار ... ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستنداً إلى السّرير ، والوزير خواجه جهان بين يديه ، والملك الكبير قبولة واقفا بين يديه . فلما سلّمت عليه قال لي الملك الكبير : ‹‹ اخدم ، فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك – دهلي – وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة ، وعيّن لك مجاشر (مبالغ) بمقدارها ، وأمر لك باثني عشر ألفاً تأخذها من الخزانة غداً ، إن شاء الله ، وأعطاك فرساً بسرجه ولجامه ، وأمر لك بخلعة محاربيّ .›› وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب . فخدمت (حَيّيت تحية الحكّام) ، وأخذ بيدي فتقدم بي إلى السلطان ، فقال لي السلطان : ‹‹ لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا .›› وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه ، وكان السلطان يفهم

العربيّ ، و لا يحسن الجواب عنه . فقلت له : « يا مولانا أنا على مذهب مالك ، وهؤلاء حنفيّة ، وأنا لا أعرف اللسان .» فقال لي : « قد عيّنت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنوري ينوبان عنك ويشاورانك ، وتكون أنت تسجّل على العقود ، وأنت عندنا بمقام الوالد .» فقلت له : « بل عبدكم وخديمكم .» فقال لي باللسان العربيّ : « بل أنت سيّدنا ومخدومنا .» تواضعاً منه وفضلاً وإيناساً .»[1]

وتولّى بعض الرحّالة وظائف حكوميّة ، مثل أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبيّ (المتوفى نحو سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧ م) ، الذي كشف في كتاب « البلدان » عن الوظائف التي تقلّدها في الدولة الطاهريّة بخراسان والدولة الطولونيّة بمصر والشام .[2]

ولمّا كان عبد الباسط بن خليل يَنْظم الشّعر ، فقد لجأ إلى مدح رؤساء الدُّول التي زارها ، وكوفِئ على ذلك بالإعفاء من الضرائب أحياناً ، وبمنحه العطايا أحياناً أخرى .[3]

(د) وأعلن الدكتور زكي محمد حسن أن من المحتمل أن إباحة تعدُّد الزوجات في الإسلام كانت تخفّف بعض متاعب الأسفار ، ولا تجعل الرحّالة المسلمين محلّ شكوك أو مصدر متاعب اجتماعيّة ، ممّا كان يشجّعهم على السّفر . واستشهد على ذلك بأن ابن بطوطة تزوّج في مصر مرّتين ، واتّخذ في جزر الملاديف أربع زوجات .[4] وقد وصف هذا الرحّالة نساء زبيد من مدن اليمن بقوله : « لهن – مع ما ذكرنا من الجمال الفائق – الأخلاق الحسنة والمكارم ، وللغريب عندهن مزيّة ، ولا يمتنعن من تزوُّجه كما يفعله نساء بلادنا . فإذا أراد السّفر ، خرجت معه و ودّعته . وإن كان بينهما ولد ، فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه . ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا

---

(١) رحلته ، ص ٥١١ – ٥١٣ (٢) أحمد رمضان : الرحلة ، ص ٧١ (٣) المرجع السابق ، ص ٣١٣ (٤) المرجع السابق ، ص ١١

كسوة ولا سواها . وإذا كان مقيماً ، فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة . لكنهن لا تخرجن عن بلادهن أبداً ، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل .»[1]

وقال عن نساء الملاديف : « من أراد التزوُّج من القادمين عليهم تزوّج . فإذا حان سفرُه طلّق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهن . وَ مَن لم يتزوج ، فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه ، وتزوّده إذا سافر . وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسر شيء من الإحسان ... والتزوُّج بهذه الجزائر سهل ، لنزارة الصَّداق وحسن معاشرة النساء . وأكثر الناس لا يُسمّي صداقاً ، إنما تقع الشهادة ، ويعطي صداق مثلها . وإذا قدمت المراكب ، تزوّج أهلها النساء . فإذا أرادوا السّفر طلّقوهن ، وذلك نوع من نكاح المتعة . وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً . ولم أرَ في الدنيا أحسن معاشرة منهن . ولا تَكِل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هي تأتيه بالطعام ، وترفعه من بين يديه ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء ، وتغمّ [2]رجليه عند النوم . ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . ولقد تزوّجت بها نسوة ، فأكل معي بعضهن بعد محاولة ، وبعضها لم تأكل معي ، ولا استطعت أن أراها تأكل ، ولا نفعتني حيلة في ذلك .»[3]

(هـ) ومن مُيسّرات السّفر والإقامة سهولة التفاهم . فقد انتشرت العربية انتشاراً سريعاً ، وصارت اللغة الرسميّة ، ولغة الدين والعلم في العالم الإسلاميّ كلّه ، ولغة التفاهم بين الشعوب في الدول العربية كلّها . ولذلك لم يجد الرحّالة مشقّة في التفاهم داخل الخلافة ، وإنما كانت المشقّة تبزغ خارجها.

وعلى الرغم من ذلك استطاع الرحّالة أن يذلّلوها . ولا يحتاج العصر الحديث إلى كلام ، لأن أغلب الرحّالة يستخدمون الإنجليزيّة والفرنسيّة في

(١) أحمد رمضان : الرحلة ، ص ٢٤٨ (٢) غَمَّ الشّيء : سَتَرَهُ وغَطّاهُ (٣) الرحلة ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٨

التفاهم ، وهما لغتان لا يصعب عليك أن تجد من يتحدَّث بإحداهما في أيِّ مكان .

كذلك تبيَّن لنا رحلة ابن بطوطة أنه كان يعرف اللغة الفارسية [١] ، ثمَّ عرف التركيَّة بعد مدَّة . قال في حديثه عن أنطالية من مدن الأناضول : « في الثاني من يوم وصولنا إلى هذه المدينة ، أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحمويِّ ، وتكلم معه باللسان التركيِّ ، ولم أكن يومئذ أفهمه .»[٢]

ومن الطبيعيِّ أن كثيراً من الرحَّالة لم يكونوا يعرفون غير العربيَّة ، وربما الفارسيَّة ، ولكن بعضهم سافر في وفود اشتملت على من يعرف غير العربيَّة . فقد كان الوفد الذي سافر مع أحمد بن فضلان إلى جنوب نهر الڤولجا في روسيا يضم تكين التركيَّ ، وبارس الصقلابيَّ وسوسن الرسيَّ مولى نذير الخرميِّ ، والمعتقد أنهما كانا يعرفان السلافية .[٣]

ولم تعدم البلاد الأجنبيَّة من كان يعرف اللغة العربيَّة ، سواء من عرفها من أبنائها أو من العرب الذين اتخذوها مقرًّا لهم ، فكانوا يقومون بالترجمة بين المتفاهمين .[٤]

بل عرف كثير من حكَّام البلاد غير العربيَّة وأعلامها العربيَّة وإن لم يحسن كثير منهم التحدُّث بها .[٥]

٤- عوامل شخصية عامَّة : لا أشكُّ أن شخصيَّات الرحَّالة كانت من العوامل المهمَّة التي دفعتهم إلى الأسفار . ومن الطبيعيِّ أن الرحَّالة يمتازون عادة بحبِّ المجازفة والمغامرة . وقد وصل الإحساس بالفرديَّة في عصر الازدهار الحضاريِّ إلى أوجه ، فكان وراء الرحلات . ويسَّر لهذا الشعور أن يُمارس ما

---

(١) الرحلة ، ص ٥٠٩ ، ٥٣٤ (٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ (٣) المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ٨٩ (٤) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٧٧ (٥) المرجع السابق ، ص ٥١٣

أحبُّ من مغامرات : اتّساع رقعة الدولة (أو الدول) الإسلامية ، وبسط السلطة التنفيذية وهيمنتها على أرجائها ، وإشاعة الأمن في أكثر أنحائها ، وحريّة التنقُّل حتى بين الأقطار التي خضعت لحكومات إسلاميّة مختلفة ، بل بين البلاد التي خضعت لحكومات غير إسلاميّة أيضاً ، كما صوّر ابن جبير التنقل بين المنطقة الإسلاميّة والمنطقة غير الإسلاميّة في أثناء الحروب الصليبيّة ، والسّفر على سفن غير إسلاميّة .

يُضاف إلى ذلك بساطة العيش التي كان الرحّالة المسلمون يحيونها ، وينشدونها في أسفارهم أو أكثرهم ، مما جعلهم لا يحسّون بالفقد أو الحرمان الكبير في تطوافهم .[1]

٥- الإيمان بفائدة الرّحلة : تدلُّ النصوص المتنوّعة على أن الناس آمنوا إيماناً عميقاً بالفوائد الجمّة التي تمنحها الرّحلات للقائمين بها . يصوّر الشعر الإيمان الشعبيّ بذلك . قال أبو تمام :

وطولُ مُقام المرءِ في الحيّ مُخْلِق ... لديباجتَيْه ، فاغترِبْ تَتَجدّدِ
فإني رأيت الشمس زيدتْ محبةً ... إلى الناس أنْ ليست عليهم بسَرْمَدِ[2]
فللموتُ خيرٌ للفتى من مُقامه ... بدار هوانٍ بين ضدٍّ وحاسدِ [3]

وقال ابن وكيع التّنّيسي يعدّد فوائد الرّحلة ويردُّ على عيوبها :

تَغرَّبْ على اسم الله ، والتمس الغنى ... وسافِرْ ، ففي الأسفار خمسُ فوائدِ
تفرُّج نفسٍ ، والتماس معيشةٍ ... وعلمٌ ، وآدابٌ ، وصُحْبةُ ماجدِ
فإن قيل : في الأسفار ذلٌّ وغربة ... وتشتيتُ شملٍ ، وارتكاب شدائد !

وتصوّر أقوال العلماء - وأخصُّ الجغرافيّين والمؤرّخين منهم - إيمانهم بتلك الفوائد . وقد مرّ بنا ما قاله المقدسيُّ في هذا الشأن ، ونتممه بقوله التالي: « اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنّفوا في هذا الباب ، وإن

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٢٨٨ ، ٤٨١ ؛ زكي محمد حسن ، ص ٦ ، ١١ ؛ شوقي ضيف ، ص ٩ ؛ حسني محمود حسين ، ص ٥٠ ، ١٢٩ (٢) الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٦١ (٣) ديوانه ، ص ٤٣

كانت [مصنفاتهم] مختلفة ، غير أن أكثرها بل كلّها سماع لهم . ونحن فلم يبق إقليم إلا وقد دخلناه ، وأقلُّ سبب إلا وقد عرفناه . وما تركنا – مع ذلك – البحث والسؤال والنظر في الغيب . فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام : أحدها ما عاينّاه ، والثاني ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنّفة في هذا الباب وفي غيره ... فكم بين مَنْ قاسى هذه الأسباب وبين مَنْ صنّف كتابه في الرفاهية ، ووضعه على السماع . ولقد ذهب لي في هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم .»[١]

وإن لم نكتفِ بالأقوال فلنرجع إلى الأعمال ، ولنطّلع على الرّحلات التي قام بها العلماء من أمثال البيرونيّ والمسعوديّ وابن البيطار ليتمّموا مؤلّفاتهم .

٦– الدعاية : من أطرف ما عثرت عليه الدّعاية الواسعة التي اضطلع بها الكتاب لجلب محبي السفر إلى أماكن معيّنة . وسلكوا فيها مسلكين : الأول وهو الأقدم : تعديد فضائل المكان الذي يكتبون عنه ومحاسنه ، سواء كان هذا المكان قطراً مثل كتاب « الإنعام بفضائل الشام » للمنينيّ ، أو أثراً مثل كتاب « إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى » لشمس الدين السيوطيّ .

المسلك الثاني الدعوة الصريحة إلى الزيارة ، كأن الكتاب أحد منشورات مكاتب السياحة . ونمثل لهذا النوع من الكتب بكتاب « الإشارات في أماكن الزيارات » لمحمود العدوي ، و « مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام » لأحمد المقدسيّ ، و « مثير الغرام في زيارة الخليل عليه السلام » لإسحاق التدمريّ .

(ب) أسباب الرّحلة

قسّم الأستاذ محمد الفاسيّ الرّحلات – حسب أسبابها وأهدافها – إلى خمسة عشر قسماً ، جعلها على النحو التالي[٢] :

١ – الحجازيّة : وهي التي يضعها صاحبها بعد رجوعه من قضاء فريضة

(١) أحسن التقاسيم ، ص ٤٥ (٢) محمد بن عثمان المكناسيّ : الإكسير في فكاك الأسير ؛ المقدمة ، ص خ – د

الحج .

٢ - السياحيّة : وهي التي غاية واضعها السياحة مطلقاً .

٣ - الرسميّة : وهي التي يرافق الرحّالة فيها الملوك ورجال الدولة في أسفار رسميّة .

٤ - الدراسيّة : وهي التي يتغرّب فيها الرحّالة في طلب العلم ، ولقاء المشايخ الكبار ، وارتياد المكاتب الشهيرة .

٥ - الأثريّة : وهي التي تكون الغاية منها البحث عن الآثار و وصفها .

٦ - الاكتشافيّة : وهي التي قام بها أصحابها بقصد اكتشاف بلاد جديدة أو الاطّلاع على أحوالها .

٧ - الزياريّة : وهي التي يقصد صاحبها من سفره زيارة أضرحة الأنبياء والأولياء ومشاهدهم .

٨ - السياسيّة : وهي التي ترجع أسبابها إلى قضايا سياسية بين بلدين .

٩ - العلميّة : وهي التي تدفع لها غاية علميّة مثل حضور مؤتمرٍ علميٍّ أو دراسة أحوال بلد أو ناحية من النواحي .

١٠ - المقاميّة : وهي التي سبكها كاتبها في قالب المقامات .

١١ - الدليليّة : وهي التي يصف كتّابها البلاد التي دخلوها دون أن يذكروا أحوالهم الخاصّة وتاريخ ورودهم وصدورهم ولا شيئاً ممّا حدث لهم .

١٢ - الخياليّة : وهي التي وضعها مؤلفوها على لسان رحّالة وهميٍّ سافر في الماضي إلى إحدى حواضر العلم والثقافة و وصف أحوالها .

١٣ - الفهرسيّة : وهي التي يقتصر مؤلفها على ذكر الشيوخ الذين قرأ عليهم ، والكتب التي درسها معهم .

١٤ - السِّفاريّة : وهي التي تكون الغاية منها القيام بسفارة لدى دولة أجنبية.

١٥ - العامّة : وهي التي تجمع كثيراً من الأغراض السابقة .

ولكننا نرى أن صاحب هذا التقسيم عني بالجزئيّات ، فتداخلت عنده أقسام ، وفاتته أخرى . ونؤثر أن نقسّم الرِّحلات - حسب أسباب القيام بها - إلى الأقسام التالية :

١ - الدينيّة :

فُرض الحجُّ إلى الكعبة في مكة المكرمة في الجاهلية ، وأقرّه الإسلام بعد أن طهّرها من الأصنام ، فتوافد عليها المئات من المسلمين ثم الآلاف ، وأخيراً زاد العدد على المليون ، حتى اضطرت الدولة السعودية إلى وضع الضوابط .

وكان من الطبيعيّ أن يتسامر هؤلاء الحجّاج مع ذويهم بالحديث عمّا وقع لهم في سفرهم ، وما قاموا به في مناسكهم ، ويصفوا ما شاهدوه في طريقهم ، وفي مكة بخاصّة ، غير أن بعضهم أضاف التّدوين إلى السَّمَر الشّفويّ .

أضيف إلى ذلك زيارة قبر الرسول الكريم ﷺ في المدينة المنوّرة ، التي يقوم بها أكثر الحجاج وإن لم تكن فرضاً عليهم .

وقد عُنيت الحكومات الإسلاميّة المختلفة بالطرق إلى مكة فمهّدتها ، وحفرت فيها الآبار ، وأقامت المعالم ، كما شيّدت في مكة والمدينة الأوقاف والتكايا لمعونة الحجّاج .

(أ) وطبيعيٌّ أن الدافع إلى الحجّ كان أداء الفرض طاعة لله . ولكننا نعرف دافعاً هامًّا يمكن إضافته إلى ذلك ، وهو التكفير عمّا ارتكبه المسلم من الذنوب .

فقد استمر ناصر خسرو (٣٩٤- ٤٨١هـ / ١٠٠٣-١٠٨٨م) يعيش

معيشة ترف وبطالة حتى سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م ، فظهر له في رؤيا شيخ طلب إليه أن يكفَّ عن تلك الحياة وعن شرب الخمر . فسافر لتأدية الحجِّ ، وقام – في هذه المناسبة – برحلات طويلة في الشرق الأدنى .[١]

وذكر ابن الرقيق أن الذي دفع ابن جبير (٥٤٠–٦١٤هـ/ ١١٤٥–١٢١٧م) إلى رحلته الأولى – التي دوَّن أخبارها – أن الأمير أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن استدعاه ليكتب له رسالة ، فقدم عليه فوجده في مجلس شرابه ، فمدَّ إليه الأمير يده بكأس ، فأظهر الانقباض ، وقال : « يا سيدي ما شربتها قط .» فقال : « والله لتشربنَّ منها سبعاً .» فلما رأى العزيمة اضطرَّ أن يشرب سبع كؤوس . فلما فرغ منها ، ملأ له الأمير الكأس من الدنانير سبع مرات وصبَّها في حجره ، ثمَّ حمله إلى منزله . وأراد محمد أن يكفِّر عن هذا الإثم الذي أرغم على اقترافه فرأى أنه لا يكفِّر عنه سوى الحجِّ ، فاستأذن الأمير فأذن له ، فباع أملاكاً وضمَّ ثمنها إلى ما ناله من الأمير وحجَّ . وذكر ابن الرقيق صراحة أن حجَّه كان في تلك السنة التي شرب فيها الخمر .

ولما كان ابن جبير شرع في رحلته تلك في سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م ، وكان الأمير أبو سعيد قد مات في سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥م ، فمن المحال إذاً أن يكون الحجُّ قد جرى في السنة نفسها . ومن المستبعد أن يكون الحجُّ للسبب الذي ذكره ابن الرقيق لما بين التاريخين من مدَّة طويلة . يُضاف إلى ذلك أن الرجل نفسه يثني في رحلته على تديُّن الموحِّدين ، ويذمُّ غيرهم من الأمراء ، ويصمهم بالبعد عن الدين .[٢]

وقام بعض الرَّحَّالة بالحجِّ شكراً لله . روى عبد الله حسين السويديّ (١١٠٤–١١٧٤هـ / ١٦٩٢–١٧٦٠م) أن نادر شاه ملك إيران عنَّت له فكرة إقامة مناظرة كبرى بين علماء الشيعة بالنجف وكربلاء وعلماء السُّنَّة من

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٢٨٤ ؛ زكي محمد حسن ، ص ٥٦

(٢) ورد الخبر المنقول عن ابن الرقيق في سبب رحلة ابن جبير في نفح الطيب للمقري ، ج ٢، ص ٣٨٥ – ٣٨٦

أفغانستان وما وراء النهر . وأجبر أحمد باشا والي بغداد السويديّ على المشاركة فيها ممثلاً لعلماء السُّنّة بالدولة العثمانية . وجرت المناظرة فعلاً قرب النجف في شتاء عام ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م . و وفق السويديّ فقرّر أن يحجّ إلى بيت الله شكراً له . ثمّ وصف ما وقع له وأحداث رحلته في كتاب « النفحة المسكيّة في الرحلة المكيّة » الذي توجد قطعة منه في كتاب آخر له عنوانه « الحجج القطعيّة لاتفاق الفرق الإسلامية » .

كذلك يروي من ترجموا لابن جبير أنه قام بثلاث رحلات للحجّ لا واحدة. أما أولاها فتلك التي دوّن وقائعها ، وفنّدنا سببها المزعوم . وأمّا الثانية فيقولون إنه قام بها لما شاع الخبر المبهج باستعادة صلاح الدين الأيوبيّ للقدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م . وقد نستشعر من هذا القول أنه قام بذلك شكراً لله ، أو إرادة تهنئة السلطان المنتصر الذي كان ابن جبير يحمل له الحب والتقدير ، أو إرادة المشاركة في الأفراح وزيارة القدس ، فإننا لا نعرف خطّ سيره في هذه الرحلة التي لم يدوّن أحداثها .

وأدّى أبو محمد عبد الله بن محمد التجانيّ [1] (٦٧٠ أو ٦٧٥ هـ – بعد ٧١٧ هـ/ ١٢٧٢ أو ١٢٧٦ – ١٣١٧م) الحجّ في رفقة أمير تونس أبي يحيى زكريا بن أحمد المشهور باللحيانيّ ، الذي كتب هذه الرحلة . قال التجانيُّ : « فكان خروجي من تونس المحروسة صحبة الرّكاب العليّ المخدوميّ الليموميّ – أعلى الله مقامه ، وأطال في العزّ دوامه – في آخر جمادى الأولى من عام ستة وسبعمئة . وكان مراده منها بالقصد الأول إنما هو التوجُّه لأداء فريضة الإسلام ، التي لا يسع تركها بعد الاستطاعة عليها أحداً من الأنام . بهذا تعلقت آماله ، وعليه كان عن الخلافة انفصاله ، إلا أن أمر الحج طوى على الناس في هذه الحركة ذكره ، وأخفى عنهم أمره . وسبب ذلك أنه لما علم في تدبير الرعيّة من حسن غنائه ، وما اجتمعت عليه قلوب

(١) في اسمه خلاف.

الجمهور ، واستتم من محبته وثنائه ، لو بيَّن لهم انطلاقه ، لأبدى كل منهم به اعتلاقه فصدّوه عن حجّه ، وردّوه عما يمّم من نهجه. »[١]

ويبدو أن الحسن بن أحمد الهَمْدانيّ المعروف بابن الحائك عمل مدة في نقل الحجّاج بين صعدة في اليمن ومكة.[٢]

ولما اشتدت الاضطرابات السياسية في تونس ، قرَّر عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ/ ١٣٣٢ – ١٤٠٦م) مغادرتها إلى المشرق ، وأظهر النيَّة على الحجّ ، ثمّ أقام بمصر ، ولم يقمْ بالحجّ إلا بعد خمس سنوات في ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧م .

ومن العبث التمثيل لهذا النوع من الرّحلات ، الذي سُمّي أحياناً الرّحلات الحجازيّة ، لكثرته ودوامه . ولكن رحلة منها له ميزتها الخاصّة تدفعني إلى إطالة الحديث عنها شيئاً ما .

فقد عُثر في سنة ١٨٨٤ ، في داخل جدار منزل عتيق في مدينة المناسد Almanacid على مجموعة من المصنَّفات الألخميادِيَّة[٣] التي في أغلب الظن أخفاها أحد الموريسكيين ، عندما اضطرّوا إلى مغادرة ديارهم بعد سقوط مدينة غرناطة العربيّة سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩٢ م . و وجدت ضمن هذه المجموعة قصيدة تصوِّر الحجّ إلى مكة بعنوان « قصيدة الحاج القادم من بوي منسون » Las Coplas del Alichonte de Puey Monzon وبالرغم من جهلنا بشخص مؤلفها ، نعرف موضع إقامته الذي بدأ منه رحلته ، وهو محلة صغيرة على بُعْد ستة عشر كيلو متراً إلى الجنوب من مدينة منسون Monzon الأرغونيَّة في وادي نهر سنكا Cinca . وكان جميع سكان هذه المنطقة من الموريسكيّين ، فتعرَّضوا لاضطهادات شديدة في عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م . وإلى عهد قريب من هذا

---

(١) رحلته ، ص ٤ (٢) صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٧ (٣) يطلق هذا اللفظ Aljamiado على الأدب الذي أنتجه الموريسكيّون ، وهم العرب الذين أجبروا على التنصّر أو تظاهروا بذلك بعد سقوط غرناطة ، وكتبوه في لغة أسبانية مدوَّنة بحروف عربية .

التاريخ تنتمي القصيدة التي تقف شاهداً على ما أبداه الموريسكيّون من صلابة في تمسُّكهم بعقيدتهم إلى ما بعد مئة عام من سقوط آخر دولة عربية في الأندلس .

وتصرح القصيدة أن مؤلفها خرج من أرغون إلى بلنسية حيث ركب سفينة لأحد البنادقة وجهتها تونس . فجرت بهم على موانئها واستمرّت إلى أن بلغت الإسكندريّة بعد أهوال . وفي القاهرة انضمّ إلى قافلة الحجّ فأدّى الفريضة برًّا . وكان يريد زيارة القدس وطور سيناء ولكنه لم يتمكن من ذاك . ثم تلزم القصيدة الصمت فلا تبيّن كيف كانت العودة . وتقدّم القصيدة معلومات طريفة عن الوسط الغريب الذي عاش فيه مؤلفها ، وسط المسلمين الأندلسيّين الذين عاشوا يعانون الاضطهاد الأسبانيّ .[1]

ويجب أن نلاحظ أن العلماء – وبخاصة علماء المغرب والأندلس استغلّوا رحلة الحجّ في طلب العلم ، ولقاء العلماء ومحاورتهم و الأخذ عنهم .

كما نلاحظ أن رحّالة – مثل ابن بطوطة – كانت رحلة حجّه باكورة رحلات استغرقت ما يقرب من ٢٨ سنة ، جاب فيها ما بين المحيطين الهادي والأطلسيّ ، وبين أواسط روسيا وأواسط أفريقيا ، من بلاد .

(ب) كذلك كانت فلسطين عامّة ، والقدس خاصّة ، قبلة لرحلات كثيرة، ازدادت زيادة واضحة منذ عصر الحروب الصليبيّة .

أما المسيحيّون فكانت القدس وطور سيناء حجّهم . وإذا كنّا نجهل الرّحلات المسيحيّة المبكّرة ، فقد وصلت إلينا ثلاث رحلات ، أقدمها قام بها شمّاس مصريٌّ يُدْعى أفرام في أواخر القرن السادس عشر الميلاديّ أو أوائل السابع عشر. وكتب رحلة من ١٥ صفحة ، قدّم فيها معلومات مفصّلة عن دير سانت كاترين ، وما اشتمل عليه من كنائس ، وحياة الرهبان فيه وعلاقاتهم مع البدو. و وصف منازل طريق الذهاب من القاهرة إلى سيناء ، وأجمل الحديث عن

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٤٦١ – ٤٦٢

طريق العودة من القدس إلى مصر .

وفي عام ١١٦٧هـ / ١٧٥٣م خرج خليل الصباغ – من الطائفة الملكانيّة – من مصر في صحبة ٥٦ حاجًا مسيحيًا ، على رأسهم رئيس دير سانت كاترين ، في رحلة استغرقت أحد عشر يومًا ، ودوّنها في اثنتي عشرة ورقة . أتى فيها بوصف مفصّل للكنيسة وخزانة الدير ومواضع القداسة الأخرى، وببعض الأخبار عن بستان الدير ومقبرته ، وحياة الرُّهبان والحجّاج ، والاحتفالات الدينيّة التي تُقام في يوم عيد القدّيسة كاترين .

وفي الثالث عشر من أبريل ١٧٥٥ (١١٦٨ هـ) خرج من حلب إلى فلسطين مسيحيٌ من الروم الكاثوليك يُدْعى إلياس الغضبان الحلبي ، خرج في صحبة راهبَيْن ، ثم عاد من رحلته في السابع والعشرين من مايو من السنة نفسها . وذكر هذه الرحلة في كتاب جعله قسمين عالج في الأول منهما الكلام عن الرحلة نفسها ، و وصف في الثاني الأماكن المقدسة التي زارها .

وأمّا المسلمون فكانوا يعدّون القدس أولى القبلتين ، ومبدأ المعراج ، وثالثة الحرمَيْن ، وأرض الأنبياء ، وموطن التهديد من الصليبيّين واليهود ، فتقاطروا على زيارتها ، وأصدروا الكتب الكثيرة التي تعدّد فضائلها وتدعو إلى الرحيل إليها .

ويمكن أن نمثّل لهذه الكتب بكتاب « إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى » الذي ألفه شمس الدين محمد بن أحمد السيوطيّ سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م وهو في القدس ، ثم نقّحه في ٨٨٠ هـ / ١٤٧٦م . وعلى الرغم من أنه وصف للمسجد الأقصى وتاريخ له ، فإنه يتحدّث عن فلسطين بل الشام كلها .

(جـ) كذلك كان السبب من بعض الرِّحلات نشر الإسلام ، وتعليم فرائضه . وأهمُّ رحلة قامت لهذا السبب رحلة أحمد بن فضلان الذي بعثه الخليفة المقتدر بالله في الحادي عشر من صفر سنة ٣٠٩ هـ / ٢١ يونيه

٩٢١م في رحلة إلى بلاد الترك والبلغار والخزر والروس والصقالبة ، تلبية لطلب من ملك الصقالبة ، حكاه ابن فضلان في قوله : « لما وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة ، إلى أمير المؤمنين المقتدر [٢٩٥ - ٣٢٠هـ] ، يسأله فيه البعثة إليه ، ممن يفقّهه في الدين ، ويعرّفه شرائع الإسلام ، ويبني له مسجداً ، وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة له في بلاده وجميع مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصّن فيه من الملوك المخالفين له . فأجيب إلى ما سأل من ذلك .»[١]

وطبيعيٌ أن يضطلع المسيحيّون بالمهمّة نفسها من أجل دينهم ، فقد ذكر ابن النديم في « الفهرست » أنه استقى أخبار الصّين من راهب نجرانيّ ، كان رئيس طائفته قد بعثه إليها مع خمسة من القسس لرعاية النصارى الموجودين فيها ، فأقام ست سنين ثم عاد هو وزميل له .[٢]

(د) ولقد ذكر الدكتور زكي محمد حسن أن أنحاء المُلك الواسع الذي أسّسه المسلمون تطلّبت الدراسة والوصف ، تمهيداً لتطبيق الشريعة .[٣]

(هـ) وكانت زيارة الأولياء وأضرحتهم السبب الذي دفع الصوفيّين من الرّحالة إلى الاضطلاع بأسفارهم ، إضافة إلى أنها دفعت غيرهم إلى التعريج على هذه الأضرحة . وأهم رحلة تمثّل هذا النوع هي تلك التي قام بها عليّ الهرويّ (المتوفى سنة ٦١١ هـ / ١٢١٥م) ، الذي لُقّب بالسائح لأنه أمضى معظم حياته في التجوال . وقد زار الهرويُّ في رحلاته الشام ومصر وبلاد العرب والعراق وإيران والهند والدولة البيزنطيّة وصقليّة ، ودوّن مشاهداته في كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » . ثم تكشف رحلات ابن جبير وابن بطوطة والقاسم بن يوسف السبتيّ التجيبيّ (٦٧٠ - ٧٣١هـ / ١٢٧١ - ١٣٣٠م) وعليّ بن محمد القرشيّ البسطيّ القلصاديّ (٨١٥ - ٨٩١ هـ / ١٤١٢ -

(١) رسالته ، ص ٦٧ (٢) ص ٤١٢ (٣) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ٦

١٤٨٦م) عن ولعهم بهذه الزيارة .

(و) وتسبّبت الاختلافات الدينيّة في إحدى الرّحلات أيضاً ، فقد عاش في حلب طبيب يهوى نظم الشعر وينتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك من المسيحيّين، يُدْعى إبراهيم الحكيم (توفي حوالى ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م) . وأرغمته الخصومة التي نشبت بين طائفته وطائفة الأرثوذكس في بلدته ، وما تعرض له من اضطهاد ، إلى الهرب إلى مصر سنة ١١٧٤هـ / ١٧٦٠م حيث أقام عامَيْن بالقاهرة . وفي تلك الأثناء كتب رسالة طويلة إلى أحد أصدقائه ، وصف فيها رحلته التي اجتاز فيها لبنان ثم ركب سفينة من بيروت إلى دمياط، و وصف انطباعاته عن مدينة القاهرة .

٢ – الاقتصاديّة :

(أ) التجارة :

تبين النقوش السومريّة والأكديّة والأشوريّة والبابليّة في العراق ، والهيروغليفيّة في مصر ، وكتابات المؤرّخين الإغريق مثل اسطرابون وبليني ، وكثير من الكلمات العربيّة ذات الأصول الأجنبيّة وأخيراً القرآن والشعر ، أن بلاد العرب كانت سوقاً هائلة : يصدر عنها التجار العرب ، ويفد إليها التجار الهنود والصينيّون وغيرهم .

وعندما رسخت قواعد الخلافة الإسلاميّة ، واتسعت أرجاؤها ، وانتشر نفوذها السياسيُّ والاقتصاديُّ ، اتسع نطاق التجارة حتى شمل العالم الإسلاميّ . ثم تعدّاه إلى الدول غير الإسلاميّة في الشرق الأقصى ، مثل الهند والصين ويُقال كوريا ، وفي الساحل الشرقيّ من أفريقيا مثل كينيا والصومال وزنجبار ، بل تعدى التجار المسلمون هذا النطاق إلى الساحل الغربيّ ، فكان أحد ملاحيهم – وهو أحمد بن ماجد – قائد فاسكو دى جاما في رحلته حول رأس الرجاء الصالح .[1] و وصلوا بتجارتهم في أوربا إلى دول البلطيق ، ولذلك ازدهرت

الطرق التجاريَّة العظيمة البريَّة ، مثل طريق الحرير البادئ من الصين ، والطرق البحريَّة الدائرة مع سواحل آسيا وأفريقيا والبحر الأبيض المتوسط . وحملوا السلع المتنوعة بين هذه البلاد .

ومما يسَّر لهم خوض البحار معرفتهم بالمراكب الضخمة . قال ابن بطوطة يصف بعضها : « مراكب الصين ثلاثة أصناف : الكبار منها تُسمىٌّ الجُنوك – واحدها جُنْك – والمتوسطة تُسمَّى الزوّ ، والصغار يُسمَّى أحدها الكَكَم . ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعًا فما دونها إلى ثلاثة . وقلعها من قضبان الخيزران ، منسوجة كالحُصر ، لا تُحَطُّ أبداً . ويديرونها بحسب دوران الرِّيح ، وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهبّ الريح ، ويخدم في المركب منها ألف رجل : منهم البحريَّة ستمئة ، ومنهم أربعمئة من المقاتلة ، تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق (= الدروع) والجُرخيَّة ، وهم الذين يرمون بالنفط . ويتبع كلَّ مركب كبير منها ثلاثة : النصفيّ ، والثُّلثيّ ، والرُّبعيّ .

« ولا تُصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون أو بصين كلان ، صين الصين . وكيفيَّة إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب ، يصلون ما بينهما بخُشب ضخام جدًّا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسمار منها ثلاثة أذرع فإذا التأم الحائطان بهذه الخُشب ، صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ، ودفعوهما في البحر ، وأتمّوا عمله ، وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية للماء ، ينزلون إليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم . وعلى جوانب تلك الخُشب تكون مجاذيفهم ، وهي كبار كالصواري ، يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً ، ويجذفون وقوفًا على أقدامهم .

« ويجعلون للمركب أربعة ظهور . ويكون فيه البيوت ، والمصاري (لعلها الشُّقَق) والغرف للتجار ، والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس ، وعليها

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٦١٩

المفتاح ، يسدُّها صاحبها ، ويحمل معه الجواري والنساء . وربما كان الرجل في مصريته ، فلا يعرف به غيرُه ممن يكون بالمركب ، حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد . والبحريّة يُسكنون فيها أولادهم ، ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب .

« و وكيل المركب كأنه أمير كبير . وإذا نزل إلى البرّ ، مشت الرماةُ والحبشة بالحراب والسيوف والأطبال (الطبول) والأبواق والأنفار أمامه . وإذا وصل إلى المنزل الذى يُقيم به ، ركَّزوا رماحهم عن جانبي بابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته .»[1]

وكانت الثمرة الطبيعيَّة أن يجد المسافر الجاليات الأجنبيَّة في كل مكان ، والموانئ بخاصَّة ، مثل الجالية التي كانت في الصين وفي مالي .[2] فإن لم تكن جالية كان أحد التجار الطموحين ، مثل ذلك المغربيّ الذي التقى به ابن بطوطة في الهند والصين ، وروى خبره في قوله : « بينا أنا في دار ظهير الدين القُرْلابي إذا بموكب عظيم لبعض الفقهاء المعظَّمين عندهم . فاستؤذن له عليّ ، وقالوا : « مولانا قوام الدين السبتيّ .» فعجبت من اسمه ، ودخل إليّ ، فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنَح لي أني أعرفه . فأطلت النَّظر إليه ، فقال : « أراك تنظر إليّ نظر من يعرفني !» فقلت : « من أي البلاد أنت ؟» فقال : « من سبتة .» فقلت له : « وأنا من طنجة .» فجدَّد السلام عليَّ ، وبكى حتى بكيت لبكائه . فقلت له : « هل دخلت بلاد الهند ؟» فقال لي: « نعم ، دخلت حضرة دهلي .» فلما قال لي ذلك ، تذكرت له وقلت : « أ أنت البشريُّ ؟» قال : « نعم .» وكان وصل إلى دهلي مع خاله أبي القاسم المُرسيّ ، وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه ، من حذّاق الطلبة ، يحفظ الموطّأ[1]. وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، وطلب

---

(١) رحلته ، ص ٥٦٥ (٢) زكي محمد حسن ، ص ٢١ ، ١٦٠

منه الإقامة عنده فأبى . وكان قصده في بلاد الصين ، فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة . أخبرني أنّ له نحو خمسين غلاماً ، ومثلهم من الجواري . وأهدى إليّ منهم غلامَيْن وجاريتين وتحفاً كثيرة . ولقيت أخاه – بعد ذلك – ببلاد السودان ، فيا بُعْد ما بينهما !»[2]

بل وُجدت جاليات وأفراد من بلاد اشتهر أهلها بكراهية الهجرة مثل المصريّين ، فقد التقى ابن بطوطة بمصريين في الصّين ومالي وتُنْبكْتو .[3] قال في حديثه عن رحلته الإفريقيّة : « ثمّ سرنا من كارْسَخُو فوصلنا إلى نهر صَنْصَرة ، وهو على نحو عشرة أميال من مالي ، وعادتهم أن يُمنَع الناس من دخولها إلا بإذن . وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان ، وكبيرهم محمد ابن الفقيه الجُزوليّ ، وشمس الدين بن النقويش المصريّ ، ليكتري لي داراً . فلمّا وصلت إلى النهر المذكور ، جزت في المعديّة ، ولم يمنعني أحد . فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان ، فنزلت عند مقبرتها . و وصلت إلى محلّة البيضان ، وقصدت محمد بن الفقيه . فوجدته قد اكترى لي داراً إزاء داره ، فتوجّهت إليها .

« وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام . ثم جاء ابن الفقيه إليّ من الغد ، وشمس الدين بن النقويش ، وعليّ الزوديّ المراكشيّ – وهو من الطلبة . ولقيت القاضي بمالي عبد الرحمن ، جاءني ، وهو من السودان ، حاجّ فاضل له مكارم أخلاق ، بعث إليّ بقرة في ضيافته . ولقيت الترجمان دُوغا ، وهو من أفاضل السودان وكبارهم ، وبعث إليّ بثور . وبعث إليّ الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني ، وقرعة من الغرتي . وبعث إليّ ابن الفقيه الأرز والفوني . وبعث إليّ شمس الدين بضيافة . وقاموا بحقّي أتمّ قيام . شكر الله حسن أفعالهم .

---

(١) الكتاب الذي جمع فيه الإمام مالك الأحاديث النبوية. (٢) رحلته ، ص ٦٣٧ (٣) رحلته ، ص ٦٨١ ، ٦٩٤

« وكان ابن الفقيه متزوِّجاً ببنت عم السلطان ، فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره. وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تُصنَع من شيء شبه القلقاس يسمى القافي ، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام . فأصبحنا جميعاً مرضى . وكنّا ستة : فمات أحدنا وذهبت أنا لصلاة الصبح ؛ فَغُشِيَ عليَّ فيها، وطلبت من بعض المصريّين دواءً مُسهِلاً . فأتى بشيء يُسمىًّ بَيْدَر ، وهو عروق نبات ، وخلطه بالأنيسون والسكر ، ولتّه بالماء . فشربته وتقيّأت ما أكلته مع صفراء كثيرة ، وعافاني الله من الهلاك ، ولكني مرضت شهرين .»[1]

ويدلُّنا خبر قوام الدين السبتيّ أن كثيراً من الرَّحالة جمعوا بين الاشتغال بالتِّجارة وطلب العلم ، مثل أبي القاسم محمد بن حَوْقل وعبد الباسط بن خليل بن شاهين .[2]

ويُبيِّن أحد الأخبار التي رواها المقدسيُّ أن من البلاد بلاداً بلغت الغاية من الثروة ، فكانت تغري من دخلها على الاشتغال بالتجارة مهما كان قصدهم من دخولها . قال : « لما ركبت بحر اليمن ، اتّفق اجتماعي مع أبي عليّ الحافظ المَرْوَزيّ في الجلبة (المركب) . فلما تأكدت المعرفة بيننا قال لي : « قد شغلت – والله – قلبي !» قلت : « بماذا ؟» قال : « أراك رجلاً على طريق حسنة تحبُّ الخير وأهله ، وترغب في جميع العلوم . وقد قصدت بلاداً قد غرَّت كثيراً من الناس ، وصدَّتهم عن طريق الورع والقناعة . وأخشى – إذا أنت دخلت عدن ، فسمعت أن رجلاً ذهب بألف درهم فخرج بألف دينار ، وآخر دخل بمئة فرجع بخمسمئة ، وآخر بكندر فرجع بمثله كافورا – طلبت نفسك التكاثر .» قلت : « أرجو أن يعصم الله .» فلما دخلتها وسمعت أكثر مما قال ، غَرَّني – والله – ما غرَّ القوم . وعملت على الذهاب إلى ناحية الزنج، وأتيت ما ينبغي أن يُشتَرى ، وتقدمت فيه إلى الوكلاء ، فبرَّد الله – عزَّ اسمه

---

(١) رحلته ، ص ٦٨١ (٢) كراتشكوفسكي، ص ٢١٦ ، ٤٨٢ ؛ زكي محمد حسن، ص ٣٩ ، ١٧٣

- ذلك على قلبي بموت شريك كنت عاقدته ، وكَسرت نفسي بذكر الموت وما بعده .»[١]

(ب) ولم يقتصر إغراء السفر على التجّار بل تعدّاهم إلى العمال ، فسافر كثير منهم بقصد العمل ، مثل ذلك الخيّاط الذي التقى به ابن فضلان عند ملك الصقالبة ، وذكره في أثناء حديثه عن قصر الليل في تلك المناطق عندما قال : « دخلت أنا وخيّاط كان للملك من أهل بغداد - قد وقع إلى تلك الناحية - قُبّتي ، لنتحدث . فتحدّثنا بمقدار ما يقرأ إنسان أقل من نصف سُبع [من القرآن] ونحن ننتظر أذان العتمة (العشاء) ، فإذا بالأذان ، فخرجنا من القبّة وقد طلع الفجر ، فقلت للمؤذن : « أي شيء أذّنت ؟» قال : « أذان الفجر .» قلت : « فالعشاء الآخرة » قال : « نصلّيها مع المغرب .» قلت : «فالليل ؟» قال : « كما ترى . وقد كان أقصر من هذا إلا أنه قد أخذ في الطول .» وذكر أنه منذ شهر ما نام خوفاً أن تفوته صلاة الغداة . وذلك أن الإنسان يجعل القِدْر على النار وقت المغرب ، ثم يصلّي الغداة وما آن لها أن تنضج .»[٢]

وفي العصر الحديث قام أحمد فارس الشدياق (١٢١٩ -١٣٠٤ هـ / ١٨٠٤ -١٨٨٧م) برحلتَيْن . كانت أولاهما إلى جزيرة مالطة ، التي دعاه حاكمها في عام ١٨٣٤ للتعليم في مدارسها ، وتصحيح ما يصدر من مطبعتها من كتب عربية . وكانت الثانية إلى إنجلترا سنة ١٨٤٨ ، بدعوة من جمعية ترجمة الأسفار المقدّسة ، ليسهم في ترجمة التوراة إلى العربيّة تحت إشراف المستشرق الدكتور لي .

(جـ) وكان جمع التبرُّعات والمعونات وراء بعض الرّحلات المسيحيّة . فقد وجد مكاريوس بن الزعيم ، بطريرك الكنيسة الأنطاكيّة في دمشق ، بطريركيّته

(١) أحسن التقاسيم ، ص ٩٧ (٢) رسالته ، ص ١٢٤

مثقلة بالدُّيون ، وعجز عن الاستعانة بأبنائها المحليّين ، لأنهم كانوا يشكون العوز مثلها ، فرأى أن يستعين بدول أخرى ، فقام برحلة في ١٦٥٤ – ١٦٥٦ إلى تركيا والبلقان وأكرانيا وروسيا للاستعانة . ودوّن ابنه الأرشيدياكون – أي كبير الشمامسة – بولس وقائع هذه الرحلة باللغة العربيّة .

(د) كذلك كان التّخلُّص من الديون سبباً في بعض الرّحلات ، فقد أخذت الديون بخناق مرتضى بك بن مصطفى بن حسن الكرديّ من أبناء دمشق . ولم يجد من يعينه عليها ، فهرب من دائنيه إلى القاهرة في ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م، وبقي يتجول في مصر إلى أن مات في ١١٣٣هـ / ١٧١٢م . وخلّف لنا الكرديُّ كتاباً باسم « تهذيب الأطوار في عجائب الأمصار » يصف فيه طريق رحلته وحياته في مصر .

٣– العلميّة :

(أ) كان طلب العلم من أقدم الأسباب التي دفعت الناس للقيام بالرّحلات. فعل ذلك الحارث بن كلدة الطبيب ، والنضر بن الحارث الأديب ، في الجاهلية .

وفي الإسلام ارتبط طلب العلم بالرّحلة ارتباطاً واسعاً . وكان من العلوم الإسلاميّة ما يرتبط بالرحلة ارتباطاً عضويًّا لا انفصام له ، مثل الجغرافيا ، ولذلك نجد الجغرافيّين المسلمين من الرحّالة ، بل لا يكتفون برحلاتهم ويأخذون عمّن التقوا بهم من الرحّالة أيضاً . ولا يشذُّ عن ذلك إلا قليلون ممن لم تكن الجغرافيا همّهم الأساسيّ ، مثل أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكريّ (المتوفى ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) .

ويكفي أن أشير إلى ما جرى في أثناء تأليف الشريف الإدريسيّ أبي عبد الله محمد بن محمد (٤٩٣–٥٦٠ هـ / ١١٠٠–١١٦٠م) كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، قال الصفدي يحكي عن روجر الثاني ملك

صقلية : « فقال له : «« أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب .»» فوقع اختيارهما على أناس ألباء فطناء أذكياء ، وجهزهم رجار إلى أقاليم الشرق والغرب : جنوباً وشمالاً . وسفّر معهم قوماً مصوّرين ليصوّروا ما يشاهدونه عياناً. وأمرهم بالتقصّي والاستيعاب لما لا بدّ من معرفته . فكان إذا حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الإدريسيُّ حتى تكامل له ما أراد ، وجعله مصنفاً .»[1] ومن الطبيعيّ أن هذه حالة فريدة ، ولكن الأخذ عن الرحّالة الأفراد كان كثيراً.

وكان من العلوم ما ارتبط بالرحّلة ارتباطاً شديداً ، غير أنه لا يبلغ مبلغ ارتباط الجغرافيا بها ، مثل النبات والتاريخ . وفعلاً اعتمد النّباتيّون مثل أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بابن الروميّة (المتوفى ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) والمؤرّخون مثل المسعوديّ أبي الحسن عليّ بن الحسين (المتوفى ٣٤٦ هـ / ٩٥٦م) والبيرونيّ أبي الريحان محمد بن أحمد (٣٦٢-٤٤٠هـ/ ٩٧٣-١٠٤٨م) والسمعانيّ أبي سعد عبد الكريم بن أبي بكر (٥٠٦-٥٦٢ هـ / ١١١٣-١١٦٧م) على الرّحلات في إتمام كتبهم القيّمة .

بل أفادت من الرّحلات علوم واهية الصّلة بها ، مثل الطب كما يظهر في رحلتي عبد اللطيف البغداديّ وعبد الباسط الظاهريّ ، والتاريخ الأدبيّ كما يظهر في كتاب « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » لِلْمَقّريّ أحمد بن محمد (١٠٠٠-١٠٤١هـ / ١٥٩١-١٦٣٢م) .

وقد قسّم المفكّرون المسلمون العلوم إلى نقليّة ، وعقليّة . أمّا النقليّة فيُراد بها العلوم التي ينقلها التلميذ عن شيوخه ويرويها منسوبة إليه . أما العقليّة فالتي تعتمد على التفكير العقليّ .

وقد فرضت العلوم النقليّة على مبتغيها الرّحلة إلى منابعها ، فرحل اللغويّون

---

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٣٠٨

والنحويّون ورواة الشعر إلى القبائل الخالصة للأخذ عنها . ورحل المحدّثون إلى الصحابة ، لأنهم عايشوا النبيّ ﷺ وأخذوا عن فمه ، ورووا عنه معاينة ، ثم رحلوا إلى من أخذ عن أفواه هؤلاء الصحابة . ومن ثمّ صغّروا من أمر من يأخذ من الكتب ، وسمّوهم الصحفيّين ، وجعلوا من الرّحلة إلى الشيوخ ما يشبه الفريضة .

ولما كان الصحابة قد تناثروا في بقاع مختلفة من العالم الإسلاميّ ، فقد اضطرّ طالبو الحديث إلى السفر وراءهم في هذه البقاع ، وخاصّة أن كثيراً منها صارت مراكز علميّة ازدهر فيها علم الحديث وغيره من العلوم الإسلاميّة .

اجتمعت كل هذه العوامل ، مع ندرة الكتب في أوّل العهد الإسلاميّ ، فجعلت من الرّحلة من أجل طلب العلم أمراً شائعاً كل الشيوع . و بسبب البعد ، انتهز علماء المغرب بخاصّة رحلة الحج – كما رأينا – للأخذ عمن يلتقون بهم من العلماء ، بل السعي إلى اللقاء بهم والأخذ عنهم ممّا جعل هذه الرّحلات تستغرق سنوات .

وعلى الرغم من ذلك كان عدد المغاربة الرّاحلين إلى المشرق لطلب العلم دون أن يستهدفوا الحجّ أو التجارة كبيراً . وقد أورد المقّريّ [١] أسماء ٢٨٠ شخصاً من الأندلسيّين وحدهم الذين فعلوا ذلك ، مصحباً ذلك باعتراف منه بأنه لم يستوعب كلّ الأسماء . ولاحظ كراتشكوفسكي بحقّ أن طابع الرحلة في طلب العلم طغى على ما عداه من أنواع الرّحلات الأخرى في المغرب منذ القرن السابع الهجريّ / الثالث عشر الميلاديّ ، ولا يلبث أن يتّسع نطاق انتشاره على ممرّ القرون حتى يبلغ الأوج بوجه خاصّ في العهد التركيّ [٢].

وأقدم رحلة بلغتنا من هذا النوع هي رحلة الإمام الشافعيّ محمد بن إدريس (١٥٠-٢٠٤هـ / ٧٦٧-٨٢٠ م) .

---

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ١٦٨

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٧

كذلك أنتجت هذه الرّحلات نوعاً خاصًّا من الكتب لا نستطيع أن نعدّه في أدب الرّحلة ، غير أننا لا نستطيع إهمال الإشارة إليه . فقد عمد كثير من الرّحالة إلى ذكر العلماء والأدباء الذين لقيهم وقرأ عليهم ، والكتب التي درسها معهم ، والمجالس التي حاورهم فيها ، وترجم لهم . وقد سُمّي هذا النّوع من الكتب عند المغاربة بالفهرسة ، وعند الأندلسيّين بالبرامج ، وعند المشارقة بالثّبت . وأوّل من وضع أساسه الفقيه أبو بكر محمد بن العربيّ (٤٦٨-٥٤٣ هـ / ١٠٧٦-١١٤٨م) .

وقد تغيّر اتجاه الرّحلات في القرون المتأخّرة ، فصارت استنبول الهدف في العصر التركيّ ، كما نرى في رحلة قطب الدين النهروالي (٩١٧-٩٩٠ هـ / ١٥١١-١٥٨٢م) الأولى . ثم صارت المدن الأوربيّة ثم الأمريكيّة هدفها في القرنين الأخيرين .

(ب) ويبدو أن كتب الفهرسة أدّت إلى وجود نوع آخر من الكتب ، عُني فيه المؤلف بإيراد وقائع حياته كلها دون الاقتصار على الجانب العلميّ وحده ، أي أنه ترجم لحياته ، فهي إذاً تراجم ذاتيّة autobiography وأهم كتاب من هذا النوع ذلك الذي كتبه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون ، العالم الاجتماعيّ الشهير (٧٣٢-٨٠٨ هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م) ونشر بعنوان « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ».

(جـ) وهناك رحلات لم يسافر فيها طلاب العلم بل المعلّمون ، وكان السبب فيها الإفادة من علمهم في المجالات العلميّة المتنوّعة كما رأينا في رحلتي الشدياق .

(د) ومن الرّحلات العلميّة ما كان الدافع إليه حضور الندوات والمؤتمرات والمهرجانات العلميّة والأدبيّة والفنيّة ، والمشاركة فيها . وهذا النوع من الرّحلات من بنات العصر الحديث ، وأمثّل له برحلات الدكتور عبد الوهاب

عزّام ، التي قال في تقديم المجلد الأوّل من مجلديها : « بدأت أسفاري في البلاد الإسلاميّة قبل عشر سنين ؛ إذ سافرت إلى إسطنبول سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩م) وتتابعت الأسفار من بعدُ فسافرت إلى الشام بعد سنة ، وإلى العراق السنة التالية . ثم سافرت إلى إيران سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) للمشاركة في حفلات الفردوسيّ ، وإلى العراق السنة التالية ، فأقمت بها سبعة أشهر ... وشرُفْت بالسَّفر إلى الحجاز سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) وعدت إلى العراق هذا العام للمشاركة في تأبين الملك الغازيّ ، رحمه الله .

« وأما أسفاري إلى أوربّا فقد تكررت بين عاميْ ١٩٢٤ و ١٩٢٧ ، ثم كانت سفرتي إلى بروكسل لحضور مؤتمر المستشرقين صيف ١٩٣٨ .»[١]

(هـ) وأخيراً أضع في الرّحلات العلميّة الرّحلات الاستكشافيّة ، التي يُراد منها استكشاف شيء مجهول . وبعض الأمثلة التي وصلت إليها قديم ، وبعضها حديث . ويعود أقدمها إلى عصر الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩ م) . روى الإدريسيُّ أن إبراهيم بن المهديّ روى في مصنَّفه «كتاب الطبيخ » أن الخليفة بعث إلى اليمن أشخاصاً ليعرفوا مصدر العنبر ، فاستقصوا في أثناء رحلتهم أخبار أهالي اليمن . ويوثق كراتشكوفسكي هذه الرواية اعتماداً على أهميّة العنبر الأشهب الذي اتُّخذ علاجاً وطيباً واضطلع بدور في اقتصاديّات الخلافة .[٢]

وروى أكثر من مؤرخ أن الخليفة الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) أرسل جماعة ، بعد الحصول على موافقة إمبراطور بيزنطة إلى آسيا الصغرى ، لفحص كهف الرقيم ، الذي ورد ذكره في القرآن ، والواقع بين مدينتيْ عموريّة Amorium ونيقيّة Nicaea .[٣]

---

(١) رحلات ، ج١ ، ص ١
(٢) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ١٤٦
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٨

واتجهت بعض أمثلة هذا النوع من الرّحلات إلى استكشاف المحيط الأطلسيّ ، فسبقت حركة الكشوف الأوربيّة المعروفة . وأمثّل لها برحلة الفتية المغرّرين التي يعتمد عليها كل من زعم أن العرب حاولوا استكشاف القارة الأمريكيّة قبل الأوربيّين ، وبرحلة أخرى ليست في شهرتها ، ولكنها جديرة بالذكر . روى القلقشنديّ في « صبح الأعشى » في أثناء حديثه عن مملكة مالي أن الملك منسا موسى بن أبي بكر مرّ بمصر في طريقه إلى الحجّ ، في عصر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤م ، فاحتفى به السلطان والأمراء ، واستفسروا منه عن أمور كثيرة في بلاده . وسأله أحدهم عن تملّكه مالي ، فأجابه بأن ابن عمّه السلطان السابق محمد بن قو كان يظنُّ أن البحر المحيط له غاية تُدْرك ، فجهّز مئات من المراكب وشحنها بالرجال والمؤن التي تكفيهم سنين . وأمرهم أن يسيروا في المحيط ، وألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أقواتهم ، فغابت المراكب مدّة ثم عاد منها مركب واحد فقط . وعندما مثل قائده أمام الملك ، قال إن المراكب سارت زمانًا طويلاً ، ثم عرض لها في وسط اللجّة وادٍ له جرية عظيمة فابتلعها ، ولم ينجُ منه غير مركبه لوجوده في مؤخرتها . وأراد السلطان أن يتثبّت من هذه الأقوال ، فأعدّ ألفيْ مركب للرجال ، وألفًا للأزواد ، واستخلف ابن عمه منسا . وأقلع بنفسه على رأس حملته الاستكشافيّة ، فكان ذلك آخر العهد به وبمن معه [1].

ومن الرّحلات الاستكشافيّة رحلات أحمد حسنين في الصحراء الغربيّة التي اكتشف فيها واحَتَيْ أركنو والعوينات على الحدود بين مصر وليبيا والسودان ، ووصفها في كتابه « في صحراء ليبيا » ، ورحلات حمد الجاسر والدكتور عبد الوهاب عزام في أنحاء الجزيرة العربيّة ، لاستكشاف مواقع الأماكن القديمة الواردة في التراث ؛ والرحلات المنقّبة عن الآثار القديمة مثل تلك التي وصفها

(١) زكي محمد حسن ، ص ٥٢

الدكتور عبد العزيز صالح في كتابه « الرّحلات والكشوف الأثريّة » .

٤ – الإداريّة :

أريد بها الرّحلات التي تكلّف بها إحدى إدارات الدولة أو الحاكم نفسه أحد الرجال أو جماعة منهم القيام بها لتحقيق هدفٍ ما .

(أ) وقد أدّى اتساع رقعة الدّولة ، والحكم المركزيُّ القائم فيها ، والحاجة إلى معرفة أخبار الولايات الخاضعة لها ، بل أخبار العالم الخارجيّ كذلك ، أدّى كل ذلك إلى العناية بالطرق ونظام البريد . فكانت الثمرة كتب المسالك والممالك ، التي تصف هذه الطرق ، والمواضع التي تربط بينها ، والمسافات فيها، والمنازل الهامّة . ولا يتنافى مع هذا أن يحسّ أحد الكتاب بالحاجة إلى هذا النوع من الكتب ، فيلبّيها دون إيعاز من أحد .

وقد اختلف المؤرّخون في أوّل من ألّف في المسالك والممالك ، فذكر ابن النديم أنه الأديب أبو عباس جعفر بن أحمد المروزيّ (المتوفى حوالى ٢٧٤هـ / ٨٨٧م).[١]

ولكن ابن النديم نفسه قال عن محمد بن خلف المعروف بوكيع القاضي (المتوفى ٣٠٦ هـ / ٩١٨م) : « له من الكتب ... كتاب الطريق ، ويعرف أيضاً بالنواحي ، ويحتوي على أخبار البلدان ومسالك الطرق . ولم يتمّه .»[٢]

واختلف الدارسون في التاريخ الذي أتمّ فيه أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه (نحو ٢٠٥هـ– نحو ٢٨٠هـ / ٨٢٠–٨٩٣ م) كتابه « المسالك والممالك » فرأى دي خويه أن الإبرازة الأولى كانت حوالى سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦ م ، وأنه أصدره في إبرازة ثانية حوالى سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٥ م . ورأى غيره أن المؤلف لم يخرج إلا إبرازة واحدة في التاريخ الأخير . وما زالت المسألة

---

(١) الفهرست ، ص ١٦٧ (٢) المرجع السابق ، ص ١٢٧

دون حل نهائيٌّ .[1]

والواضح أن التأليف في المسالك والممالك بدأ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، واستمر في الوجود والتطوُّر ، إلى أن وصل الأوج في القرن الذي بعده . ومهما يكن الأمر ، فإن هذا النوع من الكتب لا يعنينا ، لأنّه لا يأبه إلا للمعلومات العلميَّة الجافَّة ، فلا يندرج تحت أدب الرِّحلات منه إلا بعض الاستطرادات في بعض الكتب .

(ب) التَّجسُّس : يؤكد المؤرِّخون أن العرب كانت لهم جاسوسيَّتهم المنظَّمة في آسيا الصغرى منذ وقت مبكِّر ، وذكر المستشرق الروسيُّ فرين في هذا الصدد اسم عبد الله الشهير بسيد الغازيّ ؛ اعتماداً على خبر مشكوك فيه . وأعلن أنه بقي ببلاد الروم عشرين عاماً يتجسَّس عليهم ، وأن هارون الرشيد استعان به .[2]

ويُخمِّن بعض الدارسين أن التجسُّس كان سبب قيام بعض الرِّحلات القديمة ، وإن أعلنت لها أسباب أخرى . وأهم رحلة زعموا لها هذا السبب رحلات ابن حوقل ، الذي اعتمدوا على ميوله الشيعيَّة الواضحة في كتابه ، وذكروا أنه كان عيناً للدولة الفاطميَّة في مصر ، على الدولة الأمويَّة في الأندلس .[3]

أما في العصور الحديثة فأمر معروف لا يحتاج إلى دليل أن التجسُّس هو السبب الخفيُّ لكثير من الرِّحلات .

(د) ألحق بالأسباب الإداريَّة أيضاً ما كانت الحرب أو الخوف منها سبباً في القيام به . ففي عام ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧م قام السلطان قايتباي برحلة فجائيَّة إلى الشام ، أخفى الغرض منها حتى على من شاركه فيها . ويلوح أن المقصود منها كان التأكُّد من أن التحصينات القائمة على الحدود مع آسيا الصغرى في حالة

---

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ١٦٨ (٢) المرجع السابق ، ص ١٤٧

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢١ ؛ زكي محمد حسن ، ص ٤١ ؛ شوقي ضيف ، ص ١٢ ؛ أحمد رمضان، ص١٢٦

جيدة ، تستطيع معها أن تصدّ العثمانيّين إذا فكروا في مهاجمة دولته . وكان من المسافرين معه أبو البقاء بن الجيعان ، مستوفي ديوان الجيش ، وهي وظيفة رئيس كتبة الإدارة العسكريّة ، فوصف الرّحلة في كتاب صغير بعنوان « القول المستظرف في سفر مولانا الأشرف » .

وفي سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٥م أصدر محمد بن عثمان الكرديّ باي الغرب الجزائريّ أمره إلى كاتبه ومستشاره أحمد بن هطال التلمسانيّ (المتوفّى ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م) ليرافقه ويكون في خدمته ، في رحلته التي قام بها إلى الجنوب لتأديب القبائل المتمرّدة . وقد دوّن الكاتب وقائع الرّحلة في كتاب « مقتصراً على ذكر خروجه [الباي = الحاكم] إلى جهة القبلة ... مقدّراً بالسوائع (الساعات) مراحله ، ومبيّناً منازله ومناهله .»[1]

ونضع في هذا النوع روايات الأسرى المسلمين في البلاد الأجنبيّة بعد عودتهم ، في وصف معاناتهم والبلاد التي اعتقلوا فيها ، أو أذن لهم بزيارتها. وأشهر هؤلاء الأسرى مسلم بن أبي مسلم الجرميّ ، الذي قال المسعوديّ عنه وعن افتكاكه : « الفداء الثالث فداء خاقان في خلافة الواثق باللامس ، في المحرّم سنة ٢٣١ الموافق سبتمبر ٨٤٥ ... وفيه خرج مسلم بن أبي مسلم الجرميّ ، وكان ذا محل في الثغور ، ومعرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنّفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك من برجان والإبر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم .» وقال كراتشوفسكي عن أخباره : « أحسّ بعض العلماء ، خاصّة ماركفارت Markwart بميل شديد إلى أن ينسبوا إلى مسلم الجرميّ جميع ما أورده الجغرافيّون العرب بصدد الموضوعات التي ذكرها المسعوديّ عندكلامه على الجرميّ . والأمر الوحيد الذي لا يتطرق إليه الشكّ هو أن مصنفاته كانت مصدراً هامًّا للغاية في معرفة العرب بالدولة

(١) رحلته ، ص ٣٥

البيزنطيَّة ، بل وتقدّم لنا لأول مرة معلومات مباشرة ومفصَّلة عن الصقالبة وجيرانهم .»[١]

(د) التّظلُّم : أريد بذلك الرِّحلات التي قام بها أصحابها إلى عاصمة الحكم للتّظلُّم من اضطهاد تعرّضوا له أو جَوْر وقع عليهم . وكانت أكثر الرِّحلات التي عثرت عليها من هذا النوع في العهد العثمانيِّ ، فقد أمضى بدر الدين محمد الغُزّيّ العامريّ معظم حياته في التدريس في دمشق ، غير أنه فوجئ بالعزل دون وجه حق ، فتوجَّه إلى إستنبول في رمضان من عام ٩٣٦ هـ/ مايو ١٥٣٠م فاستطاع أن يعود إلى عمله بفضل عدد كبير من الأصدقاء ذوي النفوذ ، فعاد إلى دمشق في آخر ذي القعدة من عام ٩٣٧ هـ / منتصف يوليو ١٥٣١م ، و وصف وقائع رحلته في كتابه « المطالع البدريَّة في المنازل الروميَّة » .

ومن المدينة المنوَّرة خرج إلى إستنبول أيضاً إبراهيم بن عبد الرحمن الحياريّ، خطيب المسجد النبويّ ، الذي أدّت وشاية أحد العلماء به إلى عزله من عمله . فخرج متظَلّماً في رحلة بدأت في اليوم الحادي عشر من شهر المحرَّم عام ١٠٨٠ هـ / يونيو ١٦٦٩ ، واستغرقت نحو عامَيْن ، فعاد إلى مدينته في التاسع والعشرين من مارس عام ١٦٧٠م (١٠٨١ هـ) ودوَّن ما وقع له في « تحفة الأدباء و سلوة الغرباء » .

(هـ) الهروب بسبب الاضطرابات السياسيَّة والخوف من التعرُّض للقتل أو الأذى . ويتجلىّ ذلك في الدوافع التي ساقت ابن خلدون إلى مغادرة تونس ، متظاهراً بنيَّة الحج ، وعندما وصل مصر اتخذها مقرًّا له .

٥- السّفارات :

وهي الرِّحلات التي كان يقوم بها فرد أو جماعة يبعثهم فيها أحد الحكام إلى حاكم آخر لغرض من الأغراض . ولما كان الأمر كذلك كان من اليسير

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ١٤٩

وضعها في الرّحلات الإداريّة غير أني أفردتها لأهميّتها . وقد هيّأت عظمة الخلافة الإسلاميّة لحكامها آفاق الاتصال القويّ بغيرهم ، ممّا فتح لهم أبواب المعرفة المباشرة والعلميّة بأخبار جيرانهم وبعض من بَعُدَ عنهم من الشعوب .

وأقدم سفارة حُفظ لنا بعض أخبارها سفارات يحيى بن الحكم البكريّ (١٥٣–٢٥٠ هـ/ ٧٧٠ –٨٦٤ م) الملقّب بالغزال لجماله . وقد بعثه عبد الرحمن بن الحكم أمير قرطبة سفيراً عنه مرّتين : أولاهما إلى القسطنطينيّة ضمن وفد لعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور تيوفيل ، والثانية إلى الشمال – إلى جتلاند Jutland فيما يبدو – لمفاوضة النورمان الذين كانوا قد أغاروا على الأندلس سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤ م ونهبوا إشبيليّة . وقد حفظ ابن دحْيَة والمقّريّ وغيرهما من مؤرخي الأندلس بعض أخبار هذه السفارات ، كما أشار إليها الغزال في بعض شعره .

وحول سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٢م وردت إلى بلاط الأمير السامانيّ نصر بن أحمد بعثة أرسلها أحد أمراء الصّين يخطب ابنته ، فكلف الأمير أبا دلف مِسْعَر ابن المهلهل الخزرجيّ الينبوعيّ – وكان شاعراً رحّالة – أن يعود مع البعثة ، ويكون سفيره عنده ، فخرج من بخارى وعبر تركستان الغربيّة فالشرقيّة والتبت ودخل الصّين ، ثم غادرها إلى الهند ، ومنها رجع إلى بخارى عن طريق تركستان . ووصف رحلته في « عجائب البلدان » الذي لم يبقَ منه غير مقتطفات عند ابن النديم وياقوت والقزوينيّ ، وإشاراته في قصيدته التي صور فيها الساسانيّين ، وهم جماعة من المستهترين والمحتالين وقطّاع الطرق ، والمعتقد أنه كان أحدهم . قال فيها :

وشاهدت أعاجيباً وألوانًا من الدهر
فطابت بالنوى نفسي على الإمساك والفطر
على أني من القوم الـ بهاليل بني الغُر

فنحن الناس كل النا س في البرّ وفي البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة ، بل في كـ ـل أرض خيلنا تسري
إذا ضاق بنا قطر نَزُلْ عنه إلى قطر
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكفر
فنصطاف على الثلج ونشتو بلد التمر

وفي ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥م أرسل الخليفة الأندلسيّ إبراهيم بن يعقوب الطرطوشيّ في سفارة إلى أوتو الأوّل في مجدبرج ، فخرجت من أسبانيا ، وسارت في محاذاة المحيط الأطلسيّ وبحر الشمال ، مارّة على بوردو و روان و أوترخت ، ثم عبرت شلزفيج إلى بادربورن و سست و فلدا إلى ماينز . وقد اختلف العلماء في تاريخ الرحلة وشخص السفير ، ولكن الرأي استقرّ على التاريخ الذي ذكرته ، وعلى أن السفير كان عالمًا يهوديًا من الأندلس ، يشتغل في تجارة الرقيق ، وقد أورد معلومات واسعة عن إمارات الصقالبة في أوربا الوسطى ، وتفاصيل وافية عن المدن الساحليّة والقريبة من الساحل في فرنسا وهولندا وألمانيا ، وتحدث عن بلغاريا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ، ولم يبقَ من وصف رحلته غير شذرات عند البكريّ والقزوينيّ .

وقد تعدّدت وجهات السفارات العربيّة ، فكان منها – كما رأينا – ما تجول في آسيا ، وما تجول في أوربا ، وما تجول في أفريقيا . وتعدّدت أهدافها ، فكان منها الأهداف السياسية ، والأهداف الشخصيّة ، والأهداف الدينيّة ، كما نتبيّن من سفارتيْ أبي دلف وابن فضلان ، وإن كان من الواجب ملاحظة أن جميع هذه الأهداف تصبُّ أخيرًا في الهدف السياسيّ .

وقد مثّلت للرحلات في قارتيْ آسيا وأوربّا ، ويحسن أن أمثّل لسفارة إفريقية.

أشيع أن فاسيلداس ملك الحبشة راغب في اعتناق الإسلام ، فأرسل إمام اليمن المتوكل الحسن بن أحمد الحيميّ الكوكبانيّ سفيراً عنه إليه في سنة ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م ، وقد خرجت البعثة من صنعاء إلى مرفأ مخا ، ثم عبرت البحر الأحمر إلى محلّة صغيرة تسمىّ بيلول ، واخترقت البلاد إلى العاصمة غندر . ولما فرغت من مهمّتها عادت إلى اليمن عن طريق ميناء مصوع وجزر دهلك ، فوصلت إليها في ربيع الأوّل ١٠٥٩هـ / مايو ١٦٤٩م ، و وصف الرحّالة ما وقع له في كتابه « حديقة النظر ، وبهجة الفكر ، في عجائب السفر ».

وتدلُّ أخبار الرّحلات التي وصلت إلينا أن الرّحلات السفاريّة عند العرب كثيرة كثرة لافتة للنظر ، وأن الجناح الغربيّ من العالم العربيّ فاق الجناح الشرقيّ في عدد الرّحلات واتّساع مجالها .

وأخيراً وجدت رحلات سفارية في داخل رحلات عامّة . ويتمثّل هذا عند ابن بطوطة ، الذي بدأ رحلاته بغرض الحجّ ، ثم غلب عليه حبُّ السفر فدفعه إلى رحلات متعدّدة . وعندما أراد سلطان الهند محمد شاه بن تغلق أن يرسل سفارة إلى الصين ، اختار ابن بطوطة ليكون سفيره . وقد ترك لنا الرحّالة وصف هذا الاختيار في قوله : « بعث إليّ السلطان خيلاً مسرَجة وجواري وغلماناً وثياباً ونفقة ، فلبست ثيابه وقصدته ... ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ماكنت أعهده ، وقال لي : « إنّما بعثت إليك لتتوجّه عنّي رسولاً إلى ملك الصين ، فإني أعلم حبّك في الأسفار والجولان .» فجهّزني بما أحتاج إليه ، وعيّن للسفر معي من يُذكَر بعد .»[1]

٦- الشخصيّة :

(أ) طبيعيٌّ أن يقوم أشخاص عديدون بالسفر من أجل حب السفر، وتحلّيهم

(١) رحلته ، ص ٥٣٠

بروح المغامرة والمجازفة ، ورغبتهم في التمتع بالحياة ومجالي الجمال في كل مكان ، فيقومون بالسفر بمحض إرادتهم دون دافع خارجيٍّ عن أنفسهم .

والمثال الواضح عند العرب لهذا النوع من الرحّالة هو ابن بطوطة ، الذي وصفه الدكتور زكي محمد حسن بقوله : « هو أعظم الرحّالة المسلمين قاطبة ، وأكثرهم طوافًا في الآفاق ، وأوفرهم نشاطًا واستيعابًا للأخبار ، وأشدُّهم عناية بالتحدُّث عن الحالة الاجتماعيَّة في البلاد التي تجوّل فيها ... ولكن حديث رحلاته الطويلة ... يشهد بأن ابن بطوطة كان من المغامرين الذين لا يقرُّ لهم قرار ، ومن الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة في الاستمتاع بالحياة إلى أن يركبوا الصعب من الأمور.»[١] ويشهد لهذا رحلاته ، غير أني أرى خير شاهد لذلك أيضًا قوله الذي نفّذه : « من عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك .»[٢]

ويحقُّ للدكتور حسني محمود حسين أن يرى روح المجازفة والمغامرة تتمثّل في الفتية المغرِّرين الذين اجتابوا بحر الظلمات – وهو المحيط الأطلسيُّ .[٣]

ولا أشكُّ أن حبَّ السفر لذاته كان قليلاً في العصور القديمة ، غير أنه شاع وغلب في العصور الحديثة ، وبخاصَّة بعد أن صارت الأسفار ميسورة ومأمونة .

ولعل أقوال أحمد فارس الشدياق تمثّل لنا هذا الحب على الرغم من رجوعها إلى القرن الماضي ، قال : « كنت في عنفوان شبابي ، وجِدّة جلبابي ، وإزهار سنّي، وازدهار ذهني ، لَهِجًا بالسفر والاغتراب، والترحُّل عن الوطن والصحاب ، إلى بلد ينضر فيه غرسي ، وتطيب فيه نفسي ، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبسًا .»[٤]

---

(١) الرحالة المسلمون ، ص ١٣٦ (٢) رحلته ، ص ١٩١ (٣)حسني محمود حسين : أدب الرحلة ، ص ١٤ (٤) المرجع السابق ، ص ١٢٩

(ب) تسرية الحزن

كان الشاعر العربيُّ – منذ الجاهلية – إذا اشتدَّ به الكرب ، وضاقت منه النفس ، يمتطي ناقته ويضرب في الصحراء ، بغية التخفُّف من الحزن والخلوص إلى الفرج ، وبقيت تلك عادته في الإسلام . قال أميَّة بن أبي عائذ الهذليّ (المتوفى ٧٥هـ / ٦٩٤م) :

فسَلِّ الهموم بعَيْرانةٍ مُواشكة الرَّجْعِ بعد النَّقال

وقال عن ناقته :

أسلي الهموم بأمثالها وأطوي البلاد وأمضي الكَوالي
وأجعل فقرتها عُدَّة إذا خفتُ بيُّوتَ أمر عُضال [1]

وكذلك فعل ابن جبير عندما توفيت زوجته ، وعظم حزنه عليها فلم يجد ما يفرج عنه غير الشعر والرحلة . أما الشعر فقد نظم منه ديوانًا لعلّه أوّل ديوان عربيٌّ في رثاء الزوجة ، وسمّاه « نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح ». وأما الرحلة فكانت الثالثة إلى المشرق ، وتوفِّي فيها بالإسكندرية .

(جـ) التهنئة بأمر محبوب

وقع ذلك لابن جبير أيضًا ؛ فقد قيل إن السبب في قيامه برحلته الثانية استعادة صلاح الدين للقدس من أيدي الصليبيِّين ، ولكن الرحّالة لم يدوِّن إلا أخبار رحلته الأولى وحدها .

(د) جمع شمل الأسرة

اضطرَّ أحمد بن محمد المعصوم الحسنيّ المدنيّ المولد إلى مغادرة عمله بالهند نتيجة دسائس حكوميَّة ، ورجع إلى مدينته . وبعد مدَّة عاد منفرداً إلى

(١) شرح أشعار الهذليّين ٢ / ٤٩٧ . العيرانة : الناقة القوية كأنها عير = جمل . المواشكة : السريعة . الرجع : رد الأرجل . النقال : نوع من السير . الكوالي : الديون التي تأخر أداؤها . بيوت : أمر يجيء ليلاً .

الهند ، واستقرَّ به المقام فيها ، فطلب أن تلحق به أسرته . ولم تلبِّ الأسرة الطلب إلا بعد إلحاح شديد منه ، فرحلت من مكة إلى كلكتدة (كلكتا) مجتازة إيران والهند في بطء شديد ، جعل الرحلة تمتدُّ من ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥م إلى ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م . وفي ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م كتب ابنه عليّ كتاباً يصف هذه الرحلة تحت عنوان « سلوة الغريب وأسوة الأديب » .

(هـ) الصحيَّة

في العصور الحديثة نصح الأطباء مرضاهم بالانتقال من أوطانهم إلى أماكن أخرى بعض الوقت لاستعادة ما فقدوا من صحتهم . نجد مثال ذلك عند عبد الرحمن بك سامي ، صاحب « القول الحق في بيروت و دمشق » ، قال في المقدمة : « فأقول : إنني في أثناء الصيف الماضي – بعد منحي الرخصة من الحكومة السنيَّة – قصدت الأقطار السوريَّة ، حسب مشورة الأطباء ، لتغيير الهواء ، وترويح النفس ، إثر ما ألمَّ بي من انحراف الصحة ...»[١]

والحق إننا لا نستوفي الأسباب الشخصيَّة التي تدفع الإنسان إلى القيام بالرِّحلة ، وإنما أتيت بما أتيت به للتمثيل بما وجدته حاضراً بين يديَّ من رحلات .

٧- التمويهيَّة :

أريد بها الأسباب التي تعلنها بعض الرِّحلات لتخفي وراءها أسباباً أخرى ، كما رأينا في رحلة التجانيّ التي أعلن الأمير فيها أنه يريد تفقد أحوال الدولة ، وأسرَّ إلى من يثق بهم أنه يريد الحج ، بينما كان – فيما يبدو – يريد التَّجسُّس على أعدائه في جربة .

وتدفعني الظنون إلى أن أضع فيها رحلة سلام الترجمان ؛ إذ تعلن هذه الرحلة أن الخليفة الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ / ٨٤٢-٨٤٧م) رأى في المنام

(١) عبد الرحمن سامي : القول الحق في بيروت ودمشق ، ص ٥

أن السدّ الذي بناه ذو القرنَيْن ، ويحجز بين ديار المسلمين ويأجوج ومأجوج الطغاة قد انفتح فانزعج انزعاجاً شديداً ، وأمر سلاماً بأن يرحل ليتفقدّ السدّ ، وقد اتفق الدارسون في نظرهم إلى هذا السبب فرموه بالكذب . قال الدكتور زكي محمد حسن : « أشبه بأسطورة خياليّة .»[1] وقال مينوريسكي : « حكاية خرافيّة تنتشر فيها بضعة أسماء جغرافيّة .» ورأى كراتشكوفسكي أن الباعث إليها مجرد عوامل سياسية بحتة .

ولكنني أودُّ الوقوف عند اعتبار اشبرنجر لها تضليلاً مقصوداً ، وعند قول كراتشكوفسكي : « لعلّ هذا الحلم المزعج قد سبّبته للخليفة الشائعات عن تحرُّك القبائل التركيّة في أواسط آسيا نتيجة لقضاء القرغيز على دولة الأويغور حوالى عام ٨٤٠ م .»[2] وأقول : إن هذه الشائعات لم تكن سبباً في أي حلم ، وإنّما كانت سبباً مباشراً للرحلة نفسها ، التي أرسلها الخليفة للتّحقُّق من الشّائعات ، والتّجسُّس على تلك القبائل ، والتأكد من متانة التّحصينات ، وبخاصّة ما كانوا يعتقدون أنه السدُّ .

٨- الخياليّة :

ذكر الدكتور شوقي ضيف أن الإنسان ولد راحلاً ، فإن أعجزته الرحلة ، تخيّل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال . ونجد ذلك مثبوتًا في الأساطير الأول ، كما نجده ماثلاً في الحروب والفتوح القديمة ، وما سطّره الملوك الأول في مصر وغيرها .[3] وذكر الدكتور حسني محمود حسين أن الإنسان توسّع برحلاته على مدى الدهور ، ولم يعد يقصرها على سطح الكرة الأرضية ، فراح يتشوّف رحلات أعجزته قدرته عن تحقيقها بالفعل ، فلجأ إلى خياله وفكره يجوس بهما خلال عوالم ودُنًى أخرى .[4] وعرّف محمد الفاسي الرحلات الخياليّة بأنها رحلات وضعها مؤلفوها على لسان رحّالة وهميٍّ سافر في الماضي

(١) الرحالة المسملون ، ص ١٥ (٢) تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ١٤٨ ، ١٥٦- ١٥٩ (٣) الرحلات ، ص ٧ (٤) أدب الرحلة ، ص ٤

إلى إحدى حواضر العلم والثقافة ، و وصف أحوالها وشخّص مدينتها ، وهي طريقة لتقريب شؤون الحياة الماضية لأذهان المعاصرين . وأشهر هذه الرحلات الخياليّة « حضارة الإسلام في دار السلام » لجميل مدور ، و« حضارة العرب في الأندلس » لعبد الرحمن البرقوقي ، ومنها ما يكون موضوعها غير هذا كنقد أحوال المعاصرين ، والسفر المعنويّ ، وغير ذلك .

والحقُّ أن الرّحلة الخياليّة أوسع من كل ذلك ، فلا تقتصر على الماضي : لا البعيد ولا القريب ، بل تتعدّاه إلى الحاضر المعاصر للمؤلّف ، وإلى المستقبل مثل « آلة الزمان » للقصّاص هـ.ح. ويلز ، وبعض قصص نهاد شريف . ولا تقتصر على هذه الحياة الدنيا بل تتعدّاها إلى الأخرى ، مثل رحلة جلجاميش ، « والكوميديا الإلهية » للإيطاليّ دانتي . وإذاً فالرحلة الخياليّة هي التي يبتكر الخيال أحداثها جميعاً ، أو قد يتخذ أساساً من الواقع ثم يدبّر حوله وقائع مبتكرة ، كما فعل القصّاص الشعبيّون مع رحلتيْ الإسراء والمعراج . وأشهر رحلة خياليّة ابتدعها الفكر العربيُّ في العصور القديمة « رسالة الغفران » التي أجرى أبو العلاء المعريّ أحداثها يوم القيامة وبعده ، في المحشر والجنة والنار .

ومهما يكن من شيء ، فإن الرحلة الخياليّة لا تعد من أدب الرحلات ، وإنما تعدُّ من جنس أدبيٍّ شقيق له ، هو فنُّ القصة .



الفصل الثاني
تدوين الرِّحلة

دلّت كل الدلائل ، كما رأينا ، على أن الرِّحلات العربية موغلة في القدم، وأنها استمرت منذ وجدت إلى اليوم دون انقطاع ، وطبيعيٌّ أن التأريخ لفن على مثل هذا القدم مستحيل . ولو اقتصرنا على العصور الإسلاميّة لوجدنا صعوبات متعدّدة تحول دون التأريخ الذي يطمئن العالم إليه . وتتمثّل هذه الصعوبات في الظواهر التالية :

١- وصلت إلينا أخبار عن بعض الرِّحلات ، و موجز لها ، أو مقتطفات منها ، فيما خلّفه المؤرخون والجغرافيّون والأدباء ، ويبدو أن أصحابها اكتفوا بروايتها شفاهاً ولم يدوّنوها . وأقدم هذه الرِّحلات ما رواه المصريُّ الذي أسره البيزنطيّون في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وأطلقوا سراحه في عهد عبد الملك ابن مروان (٦٥-٨٦ هـ/ ٦٨٥-٧٠٥ م) ، وحفظ التنوخيُّ بعض مرويّاته في كتابه « الفرج بعد الشدة » .[١]

كذلك وصلت إلينا أخبار عن رحلات إلى الصين قام بها عبد الله بن القاسم العمانيّ قبل سنة ١٤١ هـ/ ٧٥٨ م في غالب الرأي ، والنضر بن ميمون الإباضيّ البصريّ من أبناء القرن الثاني الهجري / حدود القرنين الثامن والتاسع الميلاديين [٢] ؛ وعن رحلات في المحيط الأطلسيّ قام بها خشخاش ، والفتية المغررون ، ومحمد بن قو سلطان مالي [٣] ، ورحلة إلى روسيا قام بها إرميا مطران عكار بسوريا لجمع التبرعات من أجل الكنيسة بتوجيه من البطريرك أفتيموس (١٠٤٥-١٠٥٨هـ / ١٦٣٥-١٦٤٨م[٤]) ، دون أن تصل إلينا نصوصها .

---

(١) ج٢ ، ص ١٩١ (٢) كراتشكوفسكي ، ص ١٥٥ (٣) زكي محمد حسن ، ص ٥٢ ؛ كراتشكوفسكي ، ص ١٥٢ (٤) كراتشكوفسكي ، ص ٧٧٦

٢- و وصلت إلينا أخبار عن بعض الرّحلات التي دوّنها أصحابها ، ولكن نصوصها لم تصل إلينا ، فقد ألّف الحسن بن أحمد (أو محمد) المهلبيّ في عهد الخليفة الفاطميّ العزيز (٣٦٥-٣٨٦هـ / ٩٧٥-٩٩٦ م) كتابا سمّاه « العزيزيّ » أو « المسالك والممالك » تحدّث فيه عن الجزيرة العربية والعراق ، وكان أحد المصادر الأساسيّة لياقوت فيما يخصُّ السودان .[1]

ونقل ابن خلدون والمقّريُّ عن « الرّحلة » أو « ترتيب الرّحلة » لأبي بكر محمد بن العربيّ[2] ، ويذكر ثبت كتب أبي القاسم بن أحمد بن عليّ الزيانيّ (١١٤٧-١٢٤٩هـ / ١٧٣٤-١٨٣٣م) كتاب « رحلة الحذاق لمشاهدة البلدان والآفاق »[3] ولم يصل إلينا أيٌّ منهما .

٣- قام كثير من العلماء برحلات لخدمة العلوم التي تخصّصوا فيها ، ودوّنوا نتائج رحلاتهم في كتبهم العلميّة ، دون أن يتركوا رحلات مدوّنة في كتب مستقلة . أمثّل لذلك بعبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهريّ ، الذي نثر أخبار رحلته في مواضع متفرّقة من كتابه « الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » .

أسباب التّدوين :

١- تلبية طلب الحاكم : قال الهَرَويُّ في مقدمة « الإشارات في معرفة الزيارات » : « سألني بعض الإخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أذكر له ما زرته من الزيارات ، وما شاهدته من العجائب و الأبنية والعمارات ، وما رأيته من الأصنام والآثار الطلسمات ، في الربع المسكون والقطر المعمور ، و وقع الامتناع إلى أن حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز ، شرّفه الله وعظّمه ، وتبركنا بزيارته ، واستسعدنا برؤيته ؛ إذ كان قدومه من دار السلام وقبّة الإسلام [بغداد]...»

(١) زكي محمد حسن ، ص ٤٤ ؛كراتشكوفسكي ، ص ٢٥٣ (٢) كراتشكوفسكي ، ص ٣٣١
(٣) المرجع السابق ، ص ٨٥٢

و وضّح الدكتور أحمد رمضان هذه الإشارة فذكر أن رسولاً من قبل الخليفة في بغداد جاء إلى صلاح الدين الأيوبيّ ليوثق الصلات بين الخليفة والسلطان ، فالتقى بالهرويّ في دمشق ، وأقنعه بتدوين رحلته .[١]

ومن المعروف أن ابن بطوطة دوّن رحلته بطلب من أبي عنان المرينيّ سلطان فاس . قال كاتبه محمد بن جزيّ الكلبيّ في مقدمته : « نفذت الإشارة الكريمة بأن يُملي [الرحّالة] ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار ؛ فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتلائها ، وعجيبة أطرف بانتحائها . وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم ، المنقطع إلى بابهم ، المتشرّف بخدمة جنابهم : محمد بن محمد بن جُزَيّ الكلبيّ – أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه شكر نعمتهم – أن يضمّ أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ، ولنيل مقاصده مكتملاً .»[٢] وقال في ختام الرحلة : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة ، أكرمه الله . ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحّال العصر ، ومن قال : رحّال هذه الأمة ، لم يبعد .»[٣]

٢- تلبية طلب الأصدقاء والأقرباء : ردّد بولس الحلبيُّ أكثر من مرّة في رحلته ومقدمتها أنه دوّنها استجابة لإلحاح من صديقه الشمّاس جبرائيل قسطنطين ، رغماً عمّا يحيط بذلك من عناء .[٤]

وأهدى العباس بن عليّ بن نور الدين الموسويّ الحسينيّ المكيّ رحلته التي دوّنها في مخا باليمن سنة ١١٤٨هـ / ١٧٣٦م وسمّاها « نزهة الجليسَ وأمنية الأديب الأنيس » إلى أحمد بن يحيى الخازندار ، ولعله كان أحد مشجّعيه على

(١) الرحلة ، ص ٢٨٥ (٢) رحلته ، ص ١٢ (٣) رحلته ، ص ٧٠١ (٤) كراتشكوفسكي ، ص ٧٨٥

القيام بالرحلة أو تدوينها .[١]

وذكر رفاعة رافع الطهطاويّ (١٢١٦–١٢٩٠هـ / ١٨٠١–١٨٧٣م) أنه دوّن رحلته المسمّاة « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » استجابة لرغبة بعض أقاربه ومحبّيه ، ولا سيما شيخه حسن العطار الذي كان مولعاً بسماع عجائب الأخبار ، والاطّلاع على غرائب الآثار .[٢]

وذكر حمد الجاسر أن أحاديثه عمّا شاهده أثناء رحلاته في البلاد العربيّة والأوربيّة والأمريكيّة وداخل شبه الجزيرة العربية كانت مبعثرة في مجلة العرب وجريدة اليمامة وغيرهما من الصحف « ثم كان من الابن الكريم الأستاذ محمد بن عقيل الظاهريّ إلحاح عليّ ، وتكرار مراجعة لي ؛ لكي أقدّم له شيئاً ممّا كتبت لنشره . وفي إحدى زياراته أطلعته على إضبارة [ملف] تحوي قسماً من أحاديث تلك الرحلات ، فما كان منه – قبل أن يقرأ شيئاً ممّا فيها – إلا أن أمسك بالإضبارة ، وألحّ بأن يأخذها لتتولّى (الجمعيّة العربيّة السعوديّة للثقافة والفنون) نشرها ، وهي جمعيّة ذات مكانة عندي ، ورئيسها أثير في نفسي فتركته وما يريد .»[٣]

٣– إفادة القرّاء : صرح بذلك في إجمال الجزيريُّ الأنصاريُّ عبد القادر ابن محمد (المتوفى ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م) إذ ذكر أنه دوّن كتابه ليكون عمدة للمستفيد ، وتحفة لكل بادئ ومعيد ، ولكننا نستطيع أن نجد الصورة التامة للكتاب في قوله : « التمس مني بعض الأعزاء من خلاصة الأحباب ، والأجلاء من أفاضل الأصحاب : كتاباً جامعاً لأمور الحاج والمنازل ، وكيفية الترحيل والنزول والمناهل ، مع ما ينتظم في سلك هذا الباب ، ويحسن ذكره وموقعه عند أولى الألباب .»[٤] والحق أن الإفادة هي التي دفعت جميع الرحّالة إلى التدوين ، ولكنني اقتصرت هنا على من أجملها ، أما من فضّلها فنتابع

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٨٣٥ (٢) ص ٥٦ (٣) رحلاته ، ج١ ، ص ٥ (٤) درر الفرائد المنظمة ، ج١ ، ص ٢

الحديث عنه في البنود التالية .

٤- الاهتداء بها : كان الباعث الأوّل لرفاعة الطهطاويّ على تقييد رحلته الرغبة في التنبيه على ما يقع في سفرته ، وما يصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ؛ ليكون ما كتبه نافعاً في كشف القناع عن محيا (عرائس الأقطار) ويبقى دليلاً يَهتدي به إلى السفر إليها طلاب الأسفار .[١]

وكذلك كان قصد إبراهيم رفعت باشا بن سويفي المليجي(١٢٧٣-١٣٥٣هـ/ ١٨٥٧-١٩٣٥م) في « مرآة الحرمين ». قال بعد أن أدّى الحج أربع مرات قومندانًا لحرسه أو أميرًا له : « فرأيت أن نعمة الله عليّ لا يفي بشكرها إلا تدوين رحلتي من أوّل خطوة فيها إلى آخر خطوة و إخراجها للناس؛ لينتفعوا بها ، وليستضيئوا بنورها إذا حجّوا إلى البيت الحرام أو قصدوا الجزيرة .»[٢]

٥- إبراز المناسك : يمكن أن أقول إن ذلك كان السبب وراء تدوين كل رحلات الحج ، سواء أعلن الرحّالة ذلك أو لم يعلنه ، وأكتفي بما قاله إبراهيم رفعت باشا : « ولقد كان من أكبر البواعث على إخراج هذه الرحلات ، وتكلُّف النفقات الباهظة في سبيلها : أنها أبين شرح لفرض من فروض الدين ، وأصدق لسان يصف مهد النبوّة ومبعث التشريع ، وأنها لتكشف لك عن سيرة الرسول ﷺ والأماكن التي شرفت به حتى كأنك تراها رأي العين .»[٣]

٦- التأريخ : رأينا إبراهيم رفعت باشا يعلن أن رحلته تكشف أرجاء من السيرة النبويّة ، أما عبد الوهاب عزام فعمّم ورأى أنها تفعل ذلك مع الماضي للانتفاع به ، قال : « ولست في حاجة إلى أن أعيد ماقلت قبلاً : إني أردت بتسجيل مشاهدي أن أعرض على قرّاء العربية صفحات من ماضينا وحاضرنا ، وذكراً سعيدة أو شقيّة من تاريخنا ، وأن أدعوهم إلى الاعتزاز والاغتباط

---

(١) الطهطاوي ، ص ٥٦ (٢) إبراهيم رفعت باشا ، ج١ ، ص ٣ (٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤

بالصفحات المجيدة والذكر السعيدة ، وإلى الاعتبار بالذكر الشقيّة .»[1]

٧- التعريف بالبلدان : من الطبيعيّ أن هذا هو الغرض من كتابة الرحلات، الذي قد يجتمع معه غرض آخر من الأغراض التي ذكرتها ، وقد يكتفي الرحّالة بالإجمال في التعبير كما فعل عبد الوهاب عزّام في قوله لابنته التي يخاطبها في مقدمة رحلاته الأولى : « ومهما يكن فهذه صفحات أعربت فيها عمّا رأيته وشعرت به في البلاد الإسلاميّة ، أرجو أن تُجْدِي في التعريف بأحوال هذه البلاد .»[2] وقد يفصِّل كما فعل فؤاد حمزة في كتابه « في بلاد عسير » قال : « ظلّت مُسوَّدات الكتاب رهينة محبسها ، حتى تراءى لي مؤخراً أن في نشرها فائدة للذين يهمُّهم أمر الاطلاع على شؤون منطقة هامة من مناطق المملكة العربية السعودية ، وعلى أحوال بلاد ما زالت بكراً لم تكتسحها مؤثرات الحضارة .»[3]

٨- التعريف بمسائل علميّة : كان طلب العلم والمعرفة من الأسباب الهامة للرحلات ، كما رأينا . وقد تحدثت الرحلات العلمية والحجازيّة وغيرها عن العلماء وعلومهم وآثارهم ، ولكن « رحلة الحج » لمحمد الأمين الشّنقيطيّ الجكنيّ (١٣٢٥-١٣٩٣هـ/ ١٩٠٧-١٩٧٣م) جعلت من ذلك غرضها الأوّل . قال مؤلفها : « فليكن في علم ناظره أنّا أردنا تقييد خبر رحلتنا هذه إلى بيت الله الحرام ، ثم إلى مدينة خير الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ ليستفاد بما تضمنته من المذاكرة والأحكام وأخبار البلاد والرجال ، وما تجول فيه الأدباء من المجال . والغرض الأكبر من ذلك تقييد ما أجبنا به عن كل سؤالٍ علميٍّ سئلنا عنه في جميع رحلتنا .»[4]

٩- الحثُّ على التّرقّي : أعلن رفاعة رافع الطهطاويّ أن الباعث الثاني على تقييد رحلته إلى باريس هو «حثُّ ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانيّة

---

(١) رحلاته ، ج١ ، ص ٢ (٢) المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢ (٣) ص ٦ (٤) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، ص ٤٠

[الأجنبية] والفنون والصنائع » التي رأى من كمالها والانتفاع بها في بلاد الإفرنج ما أبقاه طول مدة إقامته في حسرة على تمتُّعها بذلك دون ممالك الإسلام.[١]

وكذلك كان غرض أحمد فارس الشدياق أن ينقل كل ما يراه مفيداً يعين قومه على التقدُّم ، ولذلك وقف نفسه على تعريف قومه بما شاهده وخبره من أحوال تلك البلاد وحياة أهلها ، بل يمكن القول : إن هذا كان السبب وراء أغلب الرحلات إلى أوربا التي دوَّنها أصحابها.[٢]

١٠- تقليد الأوربيِّين في الكتابة : صرَّح بذلك إدوار بك إلياس (المتوفى ١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م) فقال في مقدمة كتابه « مشاهد أوروبا وأميركا » : « فإني لما علمت فوائد السياحة والعلم بما في البلدان من المعالم والآثار ، ورأيت ما عند الغربيِّين من كتب يكثر نفعها ، في وصف المدائن والشواهد ، عوّلت على وضع كتاب شامل بالعربية في هذا المعنى.»[٣] ويبدو أنه لم يكن عارفاً بالرحلات العربيَّة القديمة التي قدَّرها الغربيّون أنفسهم حقَّ قدرها ، وترجموا كثيراً منها إلى لغاتهم المختلفة .

١١- تعريف الناشئين بأدب الرحلات : كان ذلك واحداً من الأغراض التي استهدفها عبد الوهاب عزام من كتابة رحلاته ، لينتفعوا بتلك المعرفة في كتاباتهم . قال : « وكذلك أردت أن أقدِّم للمتأدِّبين أسلوباً في البيان يسيراً جليا ، وضرباً من وصف المشاهد والآثار واضحاً سهلاً .»[٤] وقال : « ثم أؤمل أن تكون عوناً لناشئة الأدب على هذا الضرب من الكتابة الوصفيَّة الذين هم في حاجة إلى إتقانه .»[٥]

طرق التدوين :

ليس من الغريب أن يقوم الإنسان برحلة واحدة في حياته ، ولكن كثيراً من

(١) ص ٥٧ (٢) حسني محمود حسين ، ص ١٣١ ، ١٦٢ (٣) ص ١ (٤) ج ٢ ، ص ز
(٥) ج١ ، ص ٢

الرحّالة العرب أكثروا من الرِّحلات حتى أخذت قسطًا كبيرًا من حياتهم .

وكان من هؤلاء الرحّالة من حاول أن يكتب عن كل رحلة اضطلع بها أو أتمّ ذلك فعلاً . قال حجيج بن قاسم الواحدي في مقدمة رحلته إلى الحج سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م : « ومن عادتي أني كلّما سافرت سفرة أن أضع رحلة : أذكر فيها المنازل ، وما يقع في كل منزلة من النوادر ، ممن للأدب ينازل ، بل أذكر ما يقع من العوام ، ولو كان من مهمل الكلام ، وأضيف إلى ذلك أشعاراً رائقة وحكايات فائقة ، ونكتًا لسماعها الأسماعُ شائقة والأرواح وامقة ، تشتمل على ألفاظ أرقّ من النسيم ، وأحلى من التسنيم ، وتكون تذكرة لي في حياتي وبعد مماتي .»[1] ولكننا لم نعثر على غير الرحلة التي أشرت إليها .

وكان منهم من دوّن ثلاثة كتب : فقد غادر فضل الله بن محب الله المحبي (١٠٣١–١٠٨٢هـ / ١٦٢١–١٦٧١م) دمشق وهو في سن الشباب لعدم رضاه بالمركز التدريسيّ الذي كان يشغله . فسافر إلى حلب في ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م ثم رجع إلى دمشق حيث تنازل له والده عن مركزه ، وفي ١٠٥١هـ / ١٦٤١م سافر إلى القسطنطينيّة ، ولكنه عاد إلى دمشق بعد عام . وفي ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م سافر في معية القاضي إلى مصر واشتغل مدرسًا بالأزهر ، ثم عاد إلى دمشق التي غادرها في ١٠٧٣هـ / ١٦٦٢م إلى القسطنطينيّة للمرّة الثانية ، وبقي فيها قرابة أربعة أعوام . وأخيراً عاد إلى دمشق حيث مات . ودوّن المحبي انطباعاته في ثلاثة كتب ، هي « الرحلة الحلبية » و « الرحلة المصريّة » و « الرحلة إلى القسطنطينيّة » وكلها لم يصل إلينا .

ومثله فعل عبد الغني بن إسماعيل النابلسيّ (١٠٥٠–١١٤٣هـ/ ١٦٤١–١٧٣١م) ، وسمّي رحلاته الصغرى والوسطى والكبرى ، ودوّن أخبار الصغرى التي قام بها سنة ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م في كتاب سمّاه « حلة الذهب

(١) مخطوطة بمعهد الدراسات الشرقيّة التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية رقم ف ٨٠٠ ، الورقة ١٦ ، عن كراتشكوفسكي ، ص ٧٥٨

الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز » ، والوسطى التي قام بها سنة ١١٠١هـ/ ١٦٩٠م إلى القدس في « الحضرة الأنسيّة في الرّحلة القدسيّة » ، والثالثة التي قام بها سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م في « الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز » ، وهذه هي أشهر رحلاته الثلاث .

وكان منهم من دوّن رحلتين : فقد ولد محمد بن رُشَيد الفهريّ بسبتة عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م ، وخرج من المَرِيّة للحجّ فمرّ بشمال إفريقيا ومصر والشام ، وعند عودته اشتغل بالتدريس في غرناطة ، ثم مكث في فاس إلى أن توفي سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢١م ، وقد وصف رحلة الحج في كتابه الذي سمّاه « ملء العَيْبة فيما جمع بطول الغيبة ، في الوجهة الواجهة إلى الحرمَيْن : مكة وطيبة » وخصّص كتابه الثاني للأندلس .

ومثله فعل أحمد بن داود الحمويّ (المتوفى في ١٠١٦هـ/ ١٦٠٨م) فقد عاش في حماة وحمص وحلب ، ثم قام برحلته الأولى إلى إستنبول ، ولما عاد اشتغل بالتدريس في دمشق ، ثم صحب شيخ الإسلام في زيارته للقدس ومصر سنة ٩٧٨هـ/ ١٥٧١م ، ثم عاد إلى سوريا . وبعد مدة قام برحلة ثانية إلى استنبول سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م شهد فيها اعتلاء مراد الثالث عرش السلطنة ، ولما عاد شغل عدداً من المناصب الدينية إلى أن توفي ، وقد خلّف لنا كتابَيْن يصوّران رحلاته : أولهما وأشهرهما « حادي الأظعان النجديّة إلى الديار المصرية » وثانيهما « بوادي الدموع العندميّة بوادي الديار الروميّة » .

وكان منهم من تحدّث عن جميع رحلاته في كتاب واحد ، مثل ابن بطوطة ، وأبي القاسم الوزانيّ ، وأبي العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعيّ (١٠٥٧- حول ١١٢٩هـ / ١٦٤٧-١٧١٧م) في « الرحلة الناصرية » إلى حدٍّ ما .

وكان منهم من اقتصر على واحدة من رحلاته ، مثل ابن جبير الذي اقتصر

على أولى رحلاته الثلاث إلى الحجّ ، ومحمد بن أحمد بن حافظ الدين المقدسيّ (المتوفى عام ١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م) الذي اقتصر على رحلته البحريّة من القاهرة إلى إستنبول في كتابه « إسفار الأسفار في أبكار الأفكار » من رحلاته المتعدّدة ، ومثل قطب الدين النهروالي المكيّ (٩١٧-٩٩٠هـ/ ١٥١١-١٥٨٢م) الذي اقتصر في كتابه « الفوائد السنيّة في الرحلة المدنيّة والروميّة » على ثانية رحلاته إلى إستنبول .

وكان منهم من آثر بالذكر منطقة واحدة ، أو جعل كل واحدة من رحلاته تتناول منطقة واحدة ، كما فعل موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغداديّ، الذي جعل مصر محور كتابه الذي اختصره من كتاب كبير ، وسمّاه « الإفادة والاعتبار ، في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة ، بأرض مصر » . كذلك خصّص فؤاد حمزة واحداً من كتبه لـ « البلاد العربية السعوديّة » واقتصر في الثاني على « بلاد عسير » ، والثالث على « قلب جزيرة العرب » . ويمكن أن نقول : إن الاتجاه الحديث في كثير من الرّحلات يقصر الحديث على واحد من الأقطار .

وقد اتّخذ التدوين أشكالاً متعدّدة ، ويمكن القول : إن أغلب الرحّالة دوّنوا ملاحظات أو تعليقات أو أوصافاً أو أخباراً مسهبة أحياناً وموجزة أحياناً ، في أثناء قيامهم برحلاتهم .

وقد بدأ بعض الرحّالة في التدوين منذ اليوم الأوّل . قال كراتشكوفسكي عن رحلة مكاريوس الأنطاكيّ التي دوّنها بولس بن الزعيم الحلبيّ : « بدأ بولس في تسجيل مدوّناته منذ اليوم الأوّل للرحلة ، ولم ينقطع عن ذلك إلى لحظة رجوعه إلى أرض الوطن . »[1] وأعلن رفاعة الطهطاويّ أنه ما إن ودّع أقاربه ومحبيه في القاهرة ، عصر يوم الجمعة ثامن يوم من شعبان سنة واحد وأربعين ومئتين بعد الألف من الهجرة / ١٨٢٦م حتى راح وهو على ظهر النيل يعدُّ نفسه لتدوين

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٧٨٦

ملاحظاته ، التي بدأ يوليها اهتمامه منذ دخولهم الإسكندرية ، التي ظهرت له– دون غيرها من بلاد مصر – قريبة الميل في وضعها وحالها إلى بلاد الإفرنج ، لكثرتهم بها ، ولسريان شيء من اللغة الطليانيَّة بين أغلب السوقة فيها .[١]

وبدأ بعضهم بعد أيام ، بلغت اثنين وعشرين يومًا عند ابن جبير ، فقد انفصل عن غرناطة أوَّل ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال ، الموافق اليوم الثالث لفبراير ، وابتدأ في التقييد يوم الجمعة الموفي ثلاثين منه .[٢]

وبدأ شمس الدين السيوطيّ تدوين « إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى » بعد أن وصل إلى القدس عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م وفرغ منه بعد عام .[٣]

ودوَّن أبو سالم عبد الله بن محمد العياشيّ (١٠٣٧–١٠٩٠هـ/ ١٦٢٨–١٦٧٩م) مذكرات متقطعة أثناء الحج [٤]، وإلياس بن حنا الموصليّ القسم الأوَّل من رحلته التي بدأها من بغداد سنة ١٠٧٩هـ / ١٦٦٨م إلى أمريكا الجنوبية وعاد إلى روما سنة ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م بدأه في ليما عاصمة بيرو الآن[٥] ، وأبو محمد العبدري في تلمسان في رحلة عودته[٦] ، ودوَّن أحمد فارس الشدياق أخبار رحلته الإنجليزية في زحام لندرة (لندن) وضجيجها ، حيث « ما أظنُّ أحدًا من سكانها يمكنه أن يعمل فكره في شيء إلا فيما هو بين يديه من الشغل ، وفي هذا المورد الوخيم قدَّر الله لي أن أؤلِّف هذا الكتاب ، لا في مروج ايطاليا النضيرة ، ولا في رياض الشام الأنيقة فأخال أن بين كل كلمتين منه دخانًا متصاعدًا ، وظلامًا متكاثفًا .»[٧]

ويبدو أن بعض الرحّالة قنعوا بما دوَّنوه من مذكرات ، ورأوا أنها في غير حاجة إلى تنظيم وتهذيب ، أو أن الزمن عاجلهم فحال بينهم وبين ذاك ، فوصلت إلينا كتاباتهم كما دوَّنوها أوَّل مرة ، يتمثَّل ذلك في كتاب « القول

(١) الطهطاوي ، ص ٥٦ ، ٨٣ (٢) رحلته ، ص ٧ (٣) كراتشكوفسكي ، ص ٥٦٠
(٤) المرجع السابق، ص ٨٠٨ (٥) المرجع السابق ، ص ٧٠١ – ٧٠٥ (٦) المرجع السابق ، ص ٣٩٨ (٧) حسني محمود حسين ، ص ١٣٣

المستطرف في سفر مولانا الأشرف » لابن الجيعان ، بدليل كثرة الألفاظ والعبارات المكرَّرة فيه .[١]

ولكن أكثر الرحّالة أخضعوا مذكراتهم لكثير من التهذيب ، أجراه بعضهم في أوقات الراحة والطمأنينة في الأسفار ، وبعضهم الآخر بعد الفراغ من أسفارهم والعودة إلى أوطانهم .

فقد نظّم بولس الأنطاكيّ أوراق رحلته المبعثرة وشرع في تبييضها قبل قليل من مغادرته موسكو ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م . ودأب على هذا إلى أن وصل في تهذيبه إلى سنة ١٦٥٥م ، ولكنه شعر أن ماكتبه موجز بعض الشيء ، فلما عاد إلى الوطن وسّعه وأعاد صياغته .[٢]

وترك العياشيّ مذكرات رحلته الحجازيّة الأولى مهملة إلى أن حجّ مرة أخرى سنة ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٢م ، فتذكّرها وبيّضها ، وأخرجها في الرحلة العياشيّة التي تسميّ أيضاً « ماء الموائد » .[٣]

وانتهز العباس بن عليّ الموسويّ المكيّ فرصة وجوده بمخا من مدن اليمن ، ودوّن رحلته التي سمّاها « نزهة الجليس وأمنية الأديب الأنيس .»[٤]

أما فؤاد حمزة فقد كتب « في بلاد عسير » في أعقاب رحلته ، التي سجّل فيها مشاهداته في مذكرات يوميّة .[٥]

ودوّن أحمد بن حسن المتيوي أخبار رحلته من فاس إلى تفيللت سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م بعد عام من الفراغ منها .[٦]

وتراوح الزمن الذي كتب فيه عبد الوهاب عزام رحلاته ما بين أشهر إلى عشر سنين ، وضّح ذلك وبرّره في قوله : « بدأت أسفاري في البلاد الإسلاميّة قبل عشر سنين ... وكانت أسفاري في الشرق طويلة المدى قصيرة الزمن ، فلم ينفسح الوقت لوصف ما أشاهد وما أحس أثناء الأسفار . وكانت كتابتي عن

---

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٥١٤ (٢) المرجع السابق ، ص ٧٨٦ (٣) المرجع السابق ، ص ٨٠٨
(٤) المرجع السابق ، ص ٨٣٥ (٥) ص ٦ (٦) كراتشكوفسكي ، ص ٨٤٦

بعض الرّحلات تتأخر أشهراً بل سنة أو سنتين ، وكلما لمت نفسي على هذا التأخير أجابت : إن المشاهد التي لا يبقى أثرها في النفس سنين لا تستحق التسجيل .»[١]

ولم يدوّن مصطفى أسعد بن أحمد الدمياطيّ اللقيميّ رحلته من دمياط إلى القدس سنة ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م إلا بعد عشرين سنة وسمّاها « موانح الأنس برحلتي لوادي القدس ».

وتوجد قلة من الرحّالة لم تدوّن مذكرات أصلاً، أو دوّنت وضاعت ، أو كان ما دوّنته ضئيلاً ، فاضطرّت أن تعتمد على الذاكرة اعتماداً أساسيًّا عند تأليف الكتب التي وصفت فيها رحلاتها .

يقول كراتشكوفسكي عن أبي دلف : « فيمكن القول الآن ، و بصفة قاطعة : إنه قد ثبت أن روايته لاتمثّل يوميّات أو وصفاً للطريق ، بل تمّ تدوينها من الذاكرة ، وبعد مدّة طويلة من حدوث الرّحلة على ما يظهر .»[٢] ونعرف أن ذلك ينطبق على ابن بطوطة أيضاً .

أما عليّ الهرويّ فقد كان في قافلة سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م أغار عليها الصليبيّون ، وكانت مذكراته مما نهبوه ، ولذلك اعتذر للقارئ عمّا يشوب كتابه . قال : « إن جرى السهو فيما أذكره بطريق الغلط لا بطريق القصد ، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح في ذلك ، وإصلاح الخطأ ، وإيضاح الحق ؛ فإن كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج ... ومنها ما غرق في البحر .»

والذاكرة أمر خدّاع مراوغ ، قد يتسرّب إليها النسيان على الرغم من قوة الحافظة التي اشتهر بها علماء العرب ، وقد يتسرّب إليها الخطأ ، وقد اعترف الهرويّ بذلك في قوله السابق ، وفي قوله الآتي : « زرت أماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة ، وقد نسيت أكثر ما رأيته ، وشذّ عني أكثر ما عاينته .»[٣] »

(١) عبد الوهاب عزام ، ج ١ ، ص ٢٠١ (٢) كراتشكوفسكي ، ص ٢٠٦ (٣) زكي محمد حسن ، ص ٩١

ولكن الاعتماد على الذاكرة حرر الكاتب من أسر المذكرات ، فاستطاع أن يعيد تنظيم كتابه على التسلسل التاريخيّ للرحلة أو على الموضوعات ، بل إن الكتّاب الذين حافظوا على نظام اليوميّات ، وأطلقوا الحرية لذاكرتهم ، استطاعوا أن يثروا هذه اليوميّات بما أضافوه .

ولم يقنع بعض الرحّالة بالإبرازة التي أصدرها من رحلته ، فتناولها ثانية – أو مراراً – بالتنقيح والتوسعة والإضافة ، فأصدر شمس الدين السيوطيّ في ٨٨٠هـ/ ١٤٧٦م إبرازة ثانية من « إتحاف الأخصّا » . واستمرّ بولس بن الزعيم والزياني يفعلان ذلك في رحلتيهما طوال حياتهما .[١]

ويلفت أنظارنا أن هناك كتّاباً دوّنوا رحلات لم تنسب إليهم ، ونجد في هؤلاء الكتّاب فريقين : أما الفريق الأول فيتكوّن من كتّاب شاركوا في هذه الرحلات ، غير أنهم لم يكونوا الأشخاص الرئيسيّين الذين نسبت الرحلات إليهم ، مثال ذلك « القول المستظرف في سفر مولانا الأشرف » التي تنسب إلى السلطان قايتباي ، وهي من قلم ابن الجيعان ، و « رحلة محمد الكبير » التي تنسب إلى باي الغرب الجزائريّ ، وهي من قلم ابن هطال . وهذا النوع من الرحلات تمكن نسبته – دون حرج – إلى كُتّابه .

ويتكوّن الفريق الثاني من كتّاب لم يشاركوا فيما حرّروا من رحلات . ذكر أبو الحسن الشاري أن بعض تلاميذ ابن جبير جمعوا أوراق رحلته ونسّقوها ثم أصدروها باسمه على الهيئة التي هي عليها .[٢]

كذلك دوّن بدر الدين بن سالم الملقّب بتابع الصديقي في عام ١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م أخبار رحلة أحد شيوخه ، وسمّاها « المجاز في حقيقة رحلة الشيخ محمد زين العابدين الصديقي إلى الحجاز .»

ولكن أشهر من فعل ذلك كاتب رحلة ابن بطوطة ، فقد ألقى الرحّالة عصا التسيار في فاس سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م واتصل بسلطانها أبي عنان المريني

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٧٨٦ ، ٨٥٠ (٢) حسني محمود حسين ، ص ٢٥

(٧٤٩-٧٥٩هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٨م) وأخذ يسامره بأخبار رحلاته ، فأعجب السلطان بها ، وأمر كاتبه أن يدوِّنها ، وقد أورد هذا الكاتب - ويُدْعى محمد ابن محمد بن جُزَي - نصَّ الأمر ، فقال : « نفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وعلق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار ... وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم ، المنقطع إلى بابهم ، المتشرِّف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جزي الكلبي- أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه شكر نعمتهم - أن يضمَّ أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك ، في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ، ولنيل مقاصده مكمّلاً ، متوخيًا تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمداً إيضاحه وتقريبه .»[١]

وأبان ما أجراه في قوله : « نقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضّحة للمناحي التي اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخلّ بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ... وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية ؛ لأنها تلتبس بعُجمتها على الناس ، ويُخطيء في فكّ مُعمّاها معهودُ الناس .»[٢]

وقد أثار هذا بعض المشاكل ، فاستنتج منه الدكتور حسني محمود حسين أن ابن بطوطة كان أعجميًّا لا يتقن الكتابة العربية أو على الأقل ليست لديه ملكة الكتابة الأدبيّة . ونحن نعرف أن الرجل كان من قبيلة لواتة البربريّة ، ولكنني أرجّح أنه لم يكن لديه الرغبة في تدوين أخباره ، فقد وقع الأمر نفسه مع عبيد بن شرية العربيّ الأصيل في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وإذاً فهو ليس بالأمر الفريد ولا الشاذ .

وأدت دراسة الرحلة نفسها إلى تبيُّن أن ابن جُزَي قام بما يلي من إجراءات

---

(١) ابن بطوطة ، ص ١٢ (٢) المرجع السابق ، ص ١٣

إضافة إلى ماسبق ذكره :

- تلخيص الرحلة .
- ترتيبها .
- جمع قصصها المتفرقة في وحدة متماسكة .
- إضافة بعض الأشعار ، دون مناسبة تستوجب ذلك أحياناً .
- تحقيق بعض الأجزاء مستعيناً بكتب الرحلات المعروفة في ذلك العصر ولاسيما رحلة ابن جبير .
- إضافة نصوص نقلها عن الرحّالة الآخرين ، مثل تلك التي تتقدم وصف البلدان .
- إضافة المقدمة والخاتمة .
- تسمية الرِّحلة « تحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ».

وقد انتهى ابن جُزَي من تقييد ألفاظ ابن بطوطة في ثالث ذي الحجّة عام ٧٥٦هـ/ ديسمبر ١٣٥٥م ، وأكمل صياغتها في صفر / فبراير من العام التالي.

وأثارت هذه الأعمال التي اضطلع بها ابن جزي كثيراً من النقد ، وجلبت عليه التهم ، فقد قيل : إن ذلك أدّى إلى أن يتسرب إليها الاضطراب ، وافتقار الإطار في كثير من الأحيان إلى التّناسُب والتّناسُق ، والابتعاد عن الدِّقّة والوقوع في الأخطاء ؛ لأن ابن جزي لم يكن على معرفة بالبلاد التي يتحدّث عنها الرحّالة ، كذلك لم يستسغ كثيرون أسلوب ابن جزي المتكلّف إلى جوار عبارات ابن بطوطة السّهلة المرسلة .[1]

وهناك مجموعة من الرِّحلات أرى أن العلاقة بين الرحّالة والكاتب فيها غير

---

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٤٦٢-٤٦٣ ؛ زكي محمد حسن ، ص ١٣٧-١٣٨

واضحة ، فقد عثرنا على الرّحلات في كتب دوّنها كتّاب غير الرحّالة ، ولا ندري على وجه اليقين أ كانوا أوّل من دوّنها أم كانت مدوّنة من قبل ثم أدخلوها في كتبهم ؟

أقول ذلك عن سليمان التاجر ، الذي قام بعدة رحلات إلى الصين حوالى سنة ٢٣٧هـ/ ٨٥١ م ، وابن وهب القرشيّ الذي قام برحلة إليها بعد سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠ م ، فقد دوّنهما معاً أبو زيد الحسن السيرافي الذي كان عالماً يحب القصص ، ولم يكن رحّالة ، وقد التقى به المسعوديّ سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٦م ، ووصل إلينا ما دوّنه السيرافي تحت عنوان غريب ، هو « سلسلة التواريخ » ، ويحتوي على مقدمة لا علاقة لها ألبتّة بمحتوياته .

ولعل الموقف أوضح في كتاب « عجائب الهند » لبزرك بن شهريار ، فقد كان الرجل رُبّاناً من رامهرمز على الخليج . ويبدو أنه أولع بقصص البحر ، فأخذ يتلقفها من أفواه الربابنة والملاحين في المدة من ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م إلى ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م ، ثم رواها كما هي : قصصاً متفرقة ، لا يربطها رابط وتختلف في الطول والقصر فتتراوح بين عشر صفحات وبضعة أسطر ، ويرجح الدارسون أنه قد زيدت فيه أقاصيص من عصور متأخرة عن عصر المؤلف .[1]

ونستطيع أن نستخلص النّهج الذي سلكه الرحّالة في تدوين أخبارهم مما ذكره المقدسيّ مع شيء قليل من التغيير . قال : « وما تمّ لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلاد ، ودخولي أقاليم الإسلام ... وتجنبت الكذب والطغيان ، وتحرزت بالحجج من الطعان . ولم أودعه المجاز والمحال ، ولا سمعت إلا قول الثقات من الرجال ...

« اعلم أني أسّست هذا الكتاب على قواعد محكمة ، وأسندته بدعائم قوية ، وتحرّيت جهدي الصواب ، واستعنت بفهم أولي الألباب ، وسألت الله – عزّ

(١) شوقي ضيف ، ص ٣٣

اسمه – أن يجنبني الخطأ والزلل ، ويبلغني الرجاء والأمل .

« فأعلى قواعده وأرصف بنيانه : ما شاهدته وعقلته وعرفته وعلّقته ، وعليه رفعت البنيان ، وعملت الدعائم والأركان .

« ومن قواعده أيضاً وأركانه ، وما استعنت به على تبيانه : سؤال ذوي العقول من الناس ، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس ، عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدتُ عنها ، ولم يتقدر لي الوصول إليها ، فما وقع عليه اتفاقهم أثبتُّه ، وما اختلفوا فيه نبذته ... وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره ، أو قلت : زعموا .

« وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك ... وقد اجتهدنا في ألا نذكر شيئًا قد سطّروه [المؤلفون قبله] ، ولا نشرح أمرًا قد أوردوه إلا عند الضرورة ؛ لئلا نبخس حقوقهم ، ولا نسرق من تصانيفهم .»[١]

وأكّد المقريزيّ ذلك ، مما يجعلنا نذهب إلى أنه نهج عربيٌ عامٌ . قال :

« وأمّا أيّ أنحاء التعاليم قصدت في هذا الكتاب فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهي :

« النّقل من الكتب المصنَّفة في العلوم ، والرواية عمّن أدركت من مَشْيخة العلم وجلّة الناس ، والمشاهدة لما عاينته ورأيته .

« فأمّا النّقل من دواوين العلماء التي صنّفوها في أنواع العلوم ، فإني أعزو كلّ نقل إلى الكتاب الذي نقلت منه لأخلص من عهدته ، وأبرأ من جريرته ، فكثير ممن ضمّني وإيّاه العصر ، واشتمل علينا المصر ، صار – لقلة إشرافه على العلوم ، وقصور باعه في معرفة مقالات الناس – يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه . ولو أنصف لعلم أن العجز من قِبَلِهِ ...

« وأما الرواية عمن أدركت من المشايخ والجلّة فإني في الأكثر والغالب

(١) المقدسي ، ص ٢-٦

أصرح باسم من حدثني ، إلا مَنْ لا يُحتاج إلى تعيينه ، أو أكون قد أنسيته ، وقلّما يتفق مثل ذلك .

« وأما ما شاهدته فإني أرجو أن أكون – ولله الحمد غير متهم ولا ظنين .»[١]

وفعلاً قسّم الدكتور حسين فوزي الكُتّاب بعد أن دَرَسَ وصفهم للبلدان إلى عدّة فرق ، قال عنها : « فإذا حاولنا أن نميّز بين من وصف البلدان من العرب، وجدنا في ناحية :

« فريقاً جمع معارف غيره من معاصرين وقدماء ، وطالَعَ وفَحَصَ الخرائطَ والدّوائرَ ، كالإدريسيّ وأبي الفِداء والبيروني .

« أو تنقّل في البلاد و وصف ما رأى وعرف من أمثال التاجر سليمان ، وأبي دُلَف مِسْعَر بن مُهْلهِل والبيرونيّ أيضاً ، وابن بطوطة وابن جبير .

« أو عُني بحكم مقرّه أو وظيفته بتدوين ما سمعه من الرحّالين والتُّجّار ، وما تحويه أضابير ديوانه من معارف ، من أمثال ابن خُرْداذْبَه صاحب بريد المعتمد على الله ، والجَيْهانيّ وزير نصر بن أحمد صاحب خراسان ، وأبي زيد حسن السيرافيّ .

« أو رجلاً سافر في بعض الأصقاع ، ولكنه لم يكتف بمشاهداته الشخصيّة ، بل راح يضيف إليها ما طالعه في كتب غيره ، أو سمعه في حلّه و ترحاله من أفواه السفّار وهواة المعارف الجغرافيّة ، ومن هؤلاء البيرونيّ مرة أخرى ، وأبو الحسن المسعوديّ مؤلّف « مروج الذهب » ، وياقوت الحمويّ صاحب « معجم البلدان » .

« و وجدنا في الناحية الأخرى فريقاً عني بجمع « العجائب » ونظر إلى الكون كمجموعة من الغرائب والخوارق .

---

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٥٢٠

« أو عالمًا طبيعيًّا بالجغرافيا أغراه نجاح كتب العجائب بتأليف الكتب في عجائب البر والبحر .»[١]

فهو – وإن كان قسَّم هؤلاء الكتّاب إلى فريقين – قسَّم الفريق الأول إلى أربعة أقسام ، والفريق الثاني إلى قسمين .

يتضح من هذه النصوص وأمثالها أن الرحّالة العرب جعلوا المشاهدة العينيَّة أو المعاينة الأساس الأوَّل لأخبارهم ، وذلك أمر طبيعيٌّ يجب أن تقوم عليه الرحلة . ولذلك أصرَّ كثيرون منهم على أن يصرح في مُقدّمات رحلاتهم وفي تضاعيفها بأنهم شاهدوا ما يروون أخباره ، غير اليعقوبيّ الذي تحاشى ذكر ما لقيه في أسفاره من المشاهدات والتجارب . وعلى الرغم من ذلك يرى الباحثون أن أوصافه وأخباره تدل على أنه رأى بنفسه معظم ما عرض للكتابة فيه[٢]، ولعل السبب في تصريحه بغير ما فعل كونه أحد العاملين بالحكومة . وقد شاهد بعض الرحّالة أحداثًا تاريخية وتحدّثوا عنها ، مثل المجاعة التي وقعت بمصر سنة ٥٩٧–٥٩٨هـ/ ١٢٠٠–١٢٠٢م وتحدّث عنها عبد اللطيف البغدادي ؛ والوباء الذي انتشر في فلسطين سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م وتحدّث عنه ابن بطوطة ؛ واتحاد أكرانيا وروسيا ، والحرب ضد بولندا مما تناوله بولس بن الزعيم ؛ وقصف الفرنسيين لطرابلس سنة ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م الذي تكلّم عنه أحمد بن محمد بن الدرعيّ .

ولا شك أن الاعتماد على المعاينة يقتضي أن تتوفر في الرحّالة صفات خاصة ، تقيه خداع الحواس ، وتمكنه من لمح البعيد والسريع ، وحسن رؤية القريب . ونجد شيئًا من هذه الصفات في قول فؤاد حمزة : « كل هذه العوامل جعلتني مرهف الأذنين ، حاد العينين ، منقّبًا عن الكبيرة والصغيرة ، محقّقًا جزئيات الأمور ودقائقها ، سائلاً متعلمًا جامعًا للروايات والأخبار ، مهتمًّا بكل ما تقع العين عليه ، أو تسمع الأذن به ، أو تمسُّه اليد .»[٣]

(١) حديث السندباد القديم ، ص ٣٧ (٢) زكي محمد حسن ، ص ٣٦ ؛ اليعقوبيّ ، ص ٢
(٣) في بلاد عسير ، ص ١٣

وقد وصف الدارسون معظم الرحّالة العرب بقوة الملاحظة ودقتها ، ولذلك أكتفي بما قاله كراتشكوفسكي عن بعضهم لأنه لا يمكن أن يتهم بالتحيُّز لهم . قال عن ابن جبير : « وفي تحليله لرواية ابن جبير عن الشام اعترف الأب لامنس Lammens بأن ابن جبير يمتاز بقوة ملاحظة نافذة ، وللرحلة قيمة فريدة تتعلق بتصويرها لحياة مسلمي صقلية... »[١] وقال عن موفق الدين البغداديّ : « كان عبد اللطيف رجلاً جمّ المعرفة ، ضارباً في جميع فروع العلم بسهم ، كما كان عالمًا دقيق الملاحظة ، فهو بهذا يمثل طراز العالم المُحَقِّق الذي يتوق إلى المعرفة الإيجابيَّة مع ميل واضح إلى التجربة العلميَّة . »[٢] وقال عن العبدريّ : « لاحظ أحد العلماء الأسبان أن عرضه يتميَّز (بالصدق والدِّقَّة في الرِّواية والحيوية والرَّشاقة في الأسلوب) . وقد تمكَّن هذا العالم في أثناء رحلة قام بها في الجزائر وتونس من أن يتحقَّق بنفسه من دقَّة ملاحظات العبدريّ التي تتميَّز أحيانًا بلون محليّ خاص . »[٣] وقال عن عبد الباسط بن خليل الملطيّ الظاهريّ : « تمتع بدرجة فائقة من قوة الملاحظة في شبابه. »[٤] وعن الوزير الغسانيّ: « يكشف الرحّالة عن قوة ملاحظة وانتباه غريبين بالنسبة لعصره . »[٥]

ولعل أهم رحّالَيْن استثناهما الدّارسون من هذا الوصف هما الهرويّ وابن بطوطة ، وهما من ذوي الميول الصّوفيَّة ، فقد دفعتهما هذه الميول مع أسباب أخرى – إلى التّغاضي أحيانًا عن اليقظة ، وتصديق أشياء يصعب تصديقها ، وروايتها على أنها حقائق واقعة . ومع ذلك قال كراتشكوفسكي عن ثانيهما : « وجهت حملات النَّقد بصورة خاصَّة إلى أقسام معيَّنة من رحلته ، كوصفه للقسطنطينية وحكاياته عن الصين ... ولكن – على الرغم من هذا – تم الاعتراف في الآونة الأخيرة بأن وصفه للمدينة نفسها يتَّسم بطابع الصِّحَّة ، ولا

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٣٣٥ (٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٢ (٣) المرجع السابق ، ص ٣٩٨
(٤) المرجع السابق ، ص ٤٨٣ (٥) المرجع السابق ، ص ٨١١

يمكن أن ينتج إلا عن معرفة مباشرة بها ، فضلاً عن أنه يكشف في هذا الصّدد – كما هو الحال دائماً – عن قوة ملاحظة خارقة .»[١]

والأساس الثاني في تدوين الرِّحلات رواية الرحّالة ما سمعه من أخبار ، وقد بنى على هذا الأساس جميع الرحّالة العرب . فإلى جانب ما شاهده أبو دلف بعيني رأسه أضاف غير قليل مما سمع ، ولم يفرق بين الاثنين .[٢] ونقل الهرويّ وصفه للأماكن المشهورة بالحبشة عمَّن زارها .[٣] وكذلك كان وصف ابن وهب لبعض أخباره ، وسلام التّاجر لبعض قصصه ، وأبي حامد لما رواه عن القوقاز ، وإلياس بن حنّا الموصليّ للأخبار عن البرازيل والفيليبين – ثمرة سماع لا مشاهدة . وكان السّماع هو الذي دفع كثيراً من الرّحّالة إلى القيام برحلاتهم . قال فؤاد حمزة عن قبيلة ربيعة في بلاد عسير : « سمعت من أخبار هذه القبيلة وعاداتها الغريبة شيئًا كثيراً زاد معه شوقي إلى مشاهدة أفرادها من الجنسين ، ودرس طباعهم وأخلاقهم ، وتسقُّط أخبارهم ، لتفكهة قرائي بها ، فاغتنمت فرصة الأسواق الأسبوعية في (أبها) أيام الثلاثاء من كل أسبوع ، لمقابلة بعض من يحضر السّوق منهم ، والتقاط صور بعضهم ، وسؤالهم عن أحوالهم .»[٤]

ولو تتبعنا إشارات عبد الغنيّ بن إسماعيل النابلسيّ في « حلّة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز » وغيره لتمكنّا من معرفة الرجال والفئات الذين استمع إليهم الرحّالة العرب .

ولعل أدناهم رتبة وأبعدهم عن الصّدق : (الأدلاء) ، مثل أولئك الذين قالوا لسلام الترجمان عن الأرض السوداء كريهة الرائحة ، التي سار الركب فيها عشرة أيام ثم وصل إلى إقليم استولى الخراب على مدنه : « إن شعب يأجوج ومأجوج هو الذي خرّب تلك المدن .»[٥]

---

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٤٦٥ (٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ (٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٧
(٤) فؤاد حمزة ، ص ١٠٦ (٥) زكي محمد حسن ، ص ١٦

ويماثلهم (بعض الناس) مثل أولئك الذين قالوا للنابلسيّ عن الماء الراكد الذي رآه في قبّة صغيرة في قلعة حلب : « إنه كان مرصوداً ، متى قُفِلت أبواب القلعة – لأن قاصداً قصدها بشرٍّ –جرى ذلك الماء ، وسال من سور القلعة إلى الخارج ، ودام جريانه للصادر والوارد . وإن هناك بئراً – يقال له بئر الصياح – كان متى حوصرت القلعة وُجد فيه الماء ، وكلّما زاد الحصار زاد الماء .»(١)

و رووا عن أهل المنطقة التي يتحدثون عنها ، كما صرح فؤاد حمزة آنفاً . وقال النابلسيّ عن قرية كَفْر رَيّا : « أخبرنا بعضهم أن أصل اسمها كهف ريا ، وكانت كهفاً لنبي الله ريا – بفتح الراء وتشديد الياء مفتوحة بعدها ألف – من أنبياء بني إسرائيل ، وهو مدفون هناك في ذيل ذلك الجبل ، وله قبر طويل، عظيم جليل ، وأخبر بعضهم أن اسمه أرْيا – بهمزة مفتوحة وراء ساكنة وتخفيف الياء بعدها ألف مقصورة .»(٢)

و رووا عن أعيان المناطق ، مثل شيوخها وخطباء مساجدها ، قال النابلسيّ : « وأخبرنا ذلك الخطيب أيضاً – وكان من أهل الصلاح والدين – أنه ربما يصعد إلى ذلك الجبل – جبل لبنان – فيزور ذلك المحل المدفون فيه الشيخ عبد الرحمن [الرَّمْثاني] ، فيجد هناك جماعات من الصالحين يكلمهم ولا يكلمونه ، وينظرهم وينظرونه ، وهم فيه باهتون وعن كلامه ساكتون ، ويجد لهم هيبة واحتشاماً ، وجلالة واحتراماً ، وينصرف عنهم وهم على ذلك الحال، ولا شك أنهم من السادة أرباب الأحوال . »(٣)

و رووا عن أمراء المناطق ومن اتصل بهم . قال ابن فضلان عن الصقالبة : « إذا رأوا إنساناً له حركة ومعرفة بالأشياء ، قالوا : «« هذا حقه أن يخدم ربنا .»» فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلاً ، وعلقوه في شجرة حتى يتقطع . ولقد حدثني

(١) النابلسي : حلة الذهب الإبريز ، ص ٨٤، ١٠٦ ، ١٠٨ (٢) المرجع السابق ، ص ٧٥ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٩ ؛ رسالة ابن فضلان (٣) النابلسي ، ص ١٠٩ ؛ فؤاد حمزة ، ص ١٧ ، ٤٤ ، ١٤٥

ترجمان الملك أن سِنْديًّا سقط إلى ذلك البلد ، فأقام عند الملك برهة من الزمان يخدمه ، وكان خفيفًا فهمًا ، فأراد جماعة منهم الخروج في تجارة لهم ، فاستأذن السِّنديُّ الملك في الخروج معهم ، فنهاه عن ذلك ، فألحَّ عليه حتى أذن له ، فخرج معهم في سفينة ، فرأوه حَرِكا كَيِّسًا ، فتآمروا بينهم ، وقالوا : «هذا يصلح لخدمة ربنا ، فنوجِّه به إليه .» واجتازوا في طريقهم بغَيْضة [غابة] فأخرجوه إليها ، وجعلوا في عنقه حبلاً ، وشدّوه في رأس شجرة عالية ، وتركوه ومضوا .»[1]

وقال فؤاد حمزة : « أفادني الشيخ عليّ بن مشيبة – أمير كافة عسير ، وهو من بني مفيد – أن القبيلة متحالفة منذ زمن قديم ، ولكن كثرتها من الأزد السراة ، وفيها عناصر من شهران وقحطان ، وهذا طبيعيّ بالنظر إلى رابطة الجوار وضرورات الاختلاط الناشئ عن الغلبة والسلطان .»[2]

ورووا عن بعض الفضلاء كما فعل النابلسيّ ، وعمن شهد حادثةً معينة، مثل ذلك الذي وصف لفؤاد حمزة عملية ختان الصبيان في عسير .[3]

كذلك رووا عمّن عرف منطقة معرفة جيدة . قال النابلسيّ عن وصفه لقلعة بعلبك : « وَصْفُنا هذا لها كان بعضه بالمعاينة ، وبعضه بالإخبار ممن كانت بلاده بعلبك ، وتكرر له الدخول فيها من صغره إلى كبره ، وله بها معرفة تامة من الثقات الأخيار .»[4]

ولم يقنع كثير من الرحّالة بما وصل إليه من أخبار عن طريق السَّماع ، وأحب الزيادة ، فلجأ إلى السؤال والاستخبار ، لا سيّما ممن توسَّم فيهم الصِّدق.

ومنحنا اليعقوبيّ منهجه في الاستفسار في قوله التالي : « فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصْره ، فإذا ذكر لي محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك .. ما هي ، وزرعه ما هو ، وساكنيه من هم من عرب

---

(١) ابن فضلان ، ص ١٣٣ (٢) فؤاد حمزة ، ص ١٠٠ (٣) المرجع السابق ، ص ١٠٩ ، ١١١

(٤) النابلسي : حلة الذهب الإبريز ، ص ٨٦

أو عجم ... شرب أهله ، حتى أسأل عن لباسهم ... ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه...»[١]

ولا شك أن كثيراً من الرحّالة اتبعوه في خطاه كلها أو أكثرها ، وأنهم سألوا الفئات التي اجتمعوا بها ، بل وصل ابن فضلان إلى سؤال ملك الصقالبة نفسه . قال : « وكان تكين حدَّثني أن في بلد الملك رجلاً عظيم الخلق جدا ، فلما صرت إلى البلد سألت الملك عنه ، فقال : « نعم ، قد كان في بلدنا ومات . ولم يكن من أهل البلد ، ولا من الناس أيضاً ، وكان من خبره أن قوماً من التجار خرجوا إلى (نهر إتل) – وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد – كما يخرجون ، وهذا النهر قد مدّ وطغَى ماؤه ، فلم أشعر يوماً إلا وقد وافاني جماعة من التجار ، فقالوا : « أيها الملك ، قد قفا على الماء رجل ، إن كان من أمة تقرُب منا ، فلا مقام لنا في هذه الديار ، وليس لنا غير التحويل .»

« « فركبتُ معهم حتى صرت إلى النّهر ، فإذا أنا بالرجل ، وإذا هو بذراعي اثنا عشر ذراعاً ، وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور ، وأنف أكثر من شبر ، وعينان عظيمتان ، وأصابع تكون أكثر من شبر شبر ، فراعني أمره ، وداخلني ما داخل القومَ من الفزع ، وأقبلنا نكلمه ولا يكلمنا ، بل ينظر إلينا .

« « فحملته إلى مكاني ، وكتبت إلى أهل (ويسو) – وهم منّا على ثلاثة أشهر – أسألهم عنه ، فكتبوا إليَّ يعرفونني أن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج ، وهم منّا على ثلاثة أشهر ، عراة يحول بيننا وبينهم البحر ، لأنهم على شطّه ، وهم مثل البهائم ينكح بعضهم بعضاً . يُخرج الله – عزَّ وجلَّ – لهم كل يوم سمكة من البحر ، فيجيء الواحد منهم ومعه المدية فيجزُّ منها قدر ما يكفيه ويكفي عياله ، فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه ، وكذلك عياله يشتكون بطونهم ، وربما مات وماتوا بأسرهم ، فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت و وقعت في البحر ، فهم في كل يوم على ذلك .

(١) البلدان ، ص ٢

«« وبيننا وبينهم البحر من جانب ، والجبال محيطة بهم من جوانب أُخَر ، والسدُّ أيضا قد حال بينهم وبين الباب الذي كانوا يخرجون منه ، فإذا أراد الله – عزّ وجلّ – أن يخرجهم إلى العمارات سبَّب لهم فتح السدّ ، ونضب البحر ، وانقطع عنهم السمك .»

« فسألته عن الرجل ، فقال : « أقام عندي مدة فلم يكن ينظر إليه صبي إلا مات ، ولا حامل إلا طرحت حملها . وكان إنْ تمكّن من إنسان عَصَرَه بيديه حتى يقتله ، فلما رأيت ذلك علقته في شجرة عالية حتى مات . إن أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليها .» فقلت : « أنا – والله– أحب ذلك .» فركب معي إلى غيضة كبيرة ، فيها شجر عظام ، فتقدمني إلى شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها ، فرأيت رأسه مثل القفير [خلية النحل] الكبير ، وإذا أضلاعه أكبر من عراجين النخل ، وكذلك عظام ساقيه وذراعيه؛ فتعجبت منه وانصرفت .»[١]

وقد جلبت هذه المرويّات على كثير من الرحلات التُّهم التي وجّهها الدارسون بالكذب والاختلاق ، وبخاصة أن كثيراً منها احتوى على غرائب يصعب أن يصدقها العقل .

وعلّل الدكتور زكي محمد حسن إيراد بعض الرحّالة أخباراً غريبة جعلت القرّاء يشكّون في أقوالهم بأن اختلاطاً وقع في أذهانهم بين ما رأوه وما روي لهم . قال : « ومن غريب ما نقله أبو حامد الأندلسي في كتاب « العجائب » عن سلام الترجمان أنه قال : « وأقمت عند ملك الخزر أياماً ، ورأيت أنهم اصطادوا سمكة عظيمة جدا ، وجذبوها بالحبال ، فانفتح أذن السمكة ، وخرجت منها جارية بيضاء حمراء ، طويلة الشعر ، حسنة الصورة ، فأخرجوها إلى البر ، وهي تضرب وجهها ، وتنتف شعرها ، وتصيح ، وقد خلق الله – تعالى – في وسطها غشاء كالثوب الصفيق من سرّتها إلى ركبتيها ، كأنه إزار

(١) ابن فضلان ، ص ١٣٦ – ١٤٠

مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت .›› »

وقد تساءل الدكتور حسين فوزي في كتابه « حديث السندباد القديم » (ص١٣٥) عن تفسير ما رأى سلام الترجمان عند ملك الخزر ، وكتب في ذلك : « أيكون الملك قد عرض على رسول خليفة المسلمين منظراً تمثيليا من نوع (البانتوميم) احتفاء به واحتفالاً بقدومه ، وفهمه هذا السّاذَج على أنه حقيقة ، أو أن ملك الخزر كان ماجناً مهزاراً لا يرى عيباً أن يسخر من ضيفه ، فيدخل عليه منظر الغانية التي تخرج من أذن سمكة عظيمة جدًّا ، فيبتلع (أي فيصدِّق) سلام المنظر والغانية والسمكة الكبيرة ؟

« وعندنا أن من المحتمل أيضاً أن يكون سلام الترجمان سمع من بعض العامة في بلاد الخزر حديث تلك السمكة ، فعلقت بذهنه ، ونسبها إلى مشاهداته الخاصة .»[١]

والأساس الثّالث في تدوين الرِّحْلات نقل الرَّحّالة عمّا بين يديه من كتب مؤلَّفة . وقد أعلن فؤاد حمزة عن إعداد مكتبة صغيرة مما طبع من كتب الأقدمين عن بلاد العرب ، قبل أن يشرع في رحلته ، ضمن الأدوات والأجهزة التي أعدّها لتيسر عليه أهدافه .[٢] ولذلك وصف الباحثون كثيراً من الرحّالة بسعة الاطلاع ، والمعارف الواسعة ، والثقافة الرحبة ، ولا سيما أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونيّ (٣٦٢-٤٤٠هـ/ ٩٧٣-١٠٤٨م) وأحمد فارس الشدياق .

ونستطيع أن نصنّف الكتب التي رجعوا إليها وأفادوا منها كما يلي :

١- الرِّحْلات السّابقة : من الطبيعيّ أن يطالع من ينوي السَّفَر ما يعثر عليه من كتب تتكلّم عن البلاد التي يريد زيارتها ، وقد فعل الرَّحّالة العرب ذلك ، وظهر أثره في المقتبسات التى اقتطفوها من تلك الرِّحْلات . ويبدو أن رحلة ابن

(١) حسين فوزي ، ص ١٧ (٢) في بلاد عسير ، ص ١٢

جبير كانت المنهل العذب الذي كثر عليه الزّحام من عامة الرّحّالة ، ومن المقتصرين منهم على الحج بخاصة ، مثل زكريا بن محمد القزوينيّ (٦٠٠–٦٨٢هـ/ ١٢٣٣–١٢٨٣م) وأبي عبد الله محمد بن محمد العَبْدَريّ (نحو ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م) وأبي البقاء خالد بن عيسى البلويّ (بعد ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) وابن بطوطة .(١) كذلك أكثر النابلسيّ من الأخذ من الهرويّ لجامع الصوفيّة بينهما .(٢)

٢– الكتب الجغرافيّة : الأمر فيها مثله في الرّحْلات . وقد أخذ الرحّالة منها أحيانًا الإشارات الخاطفة وأحيانًا الفقرات الكاملة ، مع التصريح بنسبة ما أخذوا إلى صاحبه أحيانا وعدم التصريح أخرى ، فاتخذ عبد الوهاب عزام من « معجم البلدان » لياقوت بن عبد الله الروميّ رفيقًا له ، ينظر فيه كلّما مرّ ببلدة تعرض لها ياقوت .(٣) أما عبد الغني النابلسيّ فقد اتخذ من « المشترك وضعًا والمفترق صقعًا » للمؤلف نفسه ذلك الرفيق .(٤) وفعل التجانيّ الأمر نفسه مع « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الإدريسيّ (٥) ، وفؤاد حمزة مع « صفة جزيرة العرب » للهَمْدانيّ .(٦)

٣– الكتب التاريخية : الحق أن الرّحّالة توسّعوا في الاغتراف من هذه الكتب أكثر من توسُّعهم في الكتب الجغرافية ، على عكس المظنون . أضيف إلى ذلك أن بعض ما أخذوه من الجغرافيات اختفى في وسط ما أوردوه من مشاهداتهم ؛ لأن الفروق بين النّوعَيْن ضئيلة ، ويمكن القول : إن الرحّالة والمؤرخين تبادلوا الأخذ .

٤– المعارف الأخرى : لم يقصر الرّحّالة انتفاعهم على الكتب السّابقة ، بل رجعوا إلى كتب المعارف الأخرى ، غير أنهم لم يصلوا في الإفادة منها إلى

(١) زكي محمد حسن ، ص ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ؛ كراتشكوفسكي ، ص ٣٩٩ (٢) حلة الذهب ، ص ٦٨ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١١٣ (٣)عبد الوهاب عزام ، ج ٢ ، ص ٢١، ٢٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١ وغيرها (٤) حلة الذهب ، ص ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٣ (٥) التجاني ، ص ١١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٣

(٦) فؤاد حمزة ، ص ٨٨ ، ٩٣

درجة كتب العلوم السابقة .

وأبرز الكتب من هذا النوع الكتب الأدبيّة ، مثل « الذخيرة » لابن بسام ، و« خريدة القصر » للعماد الأصفهانيّ اللذين أكثر التجاني من الرجوع إليهما.[1]

كذلك تبرز كتب الفقه وأمثالها في رحلات الحج بخاصّة . وتتجلّى كتب اللغة ، ولا سيّما « القاموس المحيط » للفيروزابادي عند من اهتموا بضبط ما أوردوا من أسماء مثل النابلسيّ .[2]

وقد ظهر أثر هذا الأخذ الواسع واضحًا في الرّحلات ، فقلّ أن يذكر الرحّالة واسعو الاطلاع موضعًا أو أثرًا دون أن يتحدثوا عنه حديثًا جغرافيًّا أو تاريخيًّا أو أدبيًّا ، ولكن بعضهم أغرق في ذلك ، فانتهزوا الفرص للخروج إلى استطرادات موجزة أحيانًا ومسهبة أخرى . قال الدكتور زكي محمد حسن عن رحلة الهرويّ ، التي قوامها الآثار والعمائر الدينية : « يستطرد في الحديث عنها إلى بعض البيانات التاريخية الطريفة .»[3] وقال كراتشكوفسكي عن « النفحة المسكية في السفارة التركية » لعليّ بن محمد التمكروتي (نحو ٩٦٧ – ١٠٠٣هـ/ ١٥٦٠ –١٥٩٤ أو ١٥٩٥م) : « لا يخلو من شذور عديدة نقلها عن مؤلفين آخرين واستطرادات مختلفة ، ومثال ذلك ما نقله من أحد المؤرخين في فتح إفريقيا ودولة الأغالبة ، أو ذلك الفصل الطويل ذو الطابع الأخرويّ (eschatological) الذي يورد فيه – بصدد الكلام على مدينة المهدية – عددًا من الأحاديث في المهدي المنتظر .»[4] وعن « تهذيب الأطوار في عجائب الأمصار » لمرتضى بك بن مصطفى بن حسن الكردي (قام بها من ١١٢٧ إلى ١١٣٣هـ/ ١٧١٥ – ١٧٢١م) : « تحفل بعدد هائل من الأشعار وباستطرادات مسهبة تطغي أحيانًا على وصف الرحلة نفسها .»[5] وعن

(١) التجاني ، ص ١٦ ، ٤٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ . ١٠٦ ، ٣٦٧ (٢) حلة الذهب ، ص ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٩٧ ، ١٠٨ (٣) زكي محمد حسن ، ص ٩٠ (٤) كراتشكوفسكي ، ص ٥٠٢ (٥) المرجع السابق ، ص ٨٣٤

« الرحلة الناصرية » لأحمد بن محمد بن ناصر الدرعيّ : « لم يكن غريبًا عليه الاهتمام بالموضوعات التاريخية ، فهو يدخل في استطراد خاص يتكلم فيه عن فتوحات عقبة بن نافع بإفريقيا الشمالية ... »[1]

ولكن بعض الرحّالة أسرفوا في الجانب المعرفيّ ففقدوا التوازن المنشود بينه وبين الجانب الفنيّ ، وعيب عليهم ذلك . قال هنري دي كاستري عن التمكروتي : « لا يجهد في التعريف بخط سير الرحلة بقدر ما يحاول إظهار علمه ومعرفته .» وقال كراتشكوفسكي عن حجيج بن قاسم الواحدي : « أما تفاصيل حجته فإنه يرويها باقتضاب شديد كأنما ترد عرضًا ، هذا بينما يدخل في استطرادات مسهبة بصدد الكلام عن العلوم ، متذرعًا بمختلف المناسبات ، فأحيانًا يلقي عليه أحد زملائه في السفر أسئلة ليجيب عليها ، وتارة يلقيها المؤلف نفسه على صديقه ، وطورًا يكشف أحد معارفه العابرين – فارسيّ أو مصريّ – عن معرفته العريقة بمسائل من ميدان الفقه والنحو ، أو يستفسر لدى مؤلفنا عن بعض المسائل المغلقة ، ومن النادر ألا تحفزه مناسبة ما ، حتى وإن كانت قليلة الأهمية إلى الاستطراد ... ثم يرجع مرة أخرى إلى سرد رحلته ملتجئًا في العادة إلى عبارة مألوفة لديه هي (رجعنا إلى ما كنّا في صدده من ذكر الرحلة ، والاجتماع بكل فاضل ورُحَلة) وهذه الجملة لا يطرأ عليها تغيير كبير ، ولكنه ما يكاد يرجع إلى موضوعه الأساسيّ – أي سرد الرحلة – حتى نراه بعد أسطر قليلة يدخل في استطراد جديد على هيئة (فصل) أو (مطلب).»[2] وتنطبق هذه الأقوال نفسها مع قليل من التغيير على رحلة محمدالأمين الشنقيطيّ . وقال كراتشكوفسكي عن وصف العياشيّ لوقائع رحلته : « غير أن المؤلف لم يعتبر كل هذا جديرًا باهتمام الرحّالة الجاد ، فهو قد صرف اهتمامه قبل كل شيء إلى فحص مناهج العلوم الإسلامية في البلاد التي زارها بحيث يمثّل كتابه إلى حدٍّ ما دائرة معارف فريدة من نوعها في

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٨٤٤ (٢) المرجع السابق ، ص ٧٥٩

العلوم والتّصوُّف ، وقد رأى لزاماً عليه أن يشير في كل موضع إلى المخطوطات النادرة التي رآها في الأماكن المختلفة .»[١]

وقد نثر معظم الرحّالة معلوماتهم في إشارات غير مطوّلة في أثناء الحديث عن المشاهدات المتنوّعة ، أما من أطال فقد لجأ إلى الاستطراد كما رأينا فيما سبق أو إلى عقد الفصول الخاصة بهذه الاستطرادات في مجرى الرحلة ، أو تقسيم الرحلة بين المعارف والمشاهدات . فقد جعل رمضان بن موسى العُطيفي (١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م) « رحلة من دمشق الشام إلى طرابلس الشام » في بابين: الأول في مدح السَّفَر ، وحشاه بالأقوال المنقولة ، والثاني في وقائع الرحلة نفسها. وقسّم إلياس بن حنا الموصليّ (قام برحلته في ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م وأنهاها في ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م) قسمين مستقلين : يشمل أحدهما الوصف الأساسيّ للرحلة ، جعله تحت عنوان (السياحة) وأفرد القسم الثاني – الذي يقع في الحجم نفسه تقريباً ، ويضم سبعة عشر فصلاً – الكلام على اكتشاف أمريكا وتاريخها ، واعتمد فيه اعتماداً أساسيًّا على المصنفات اللاتينية والأسبانية. ومن الطبيعيّ أننا لا نستطيع أن نعدّ هذا النوع من الكتب من الشكل الفنيّ للرِّحلات.

وقد بدا كثير من الرَّحّالة الأولين – والمتصوّفين بخاصة – سليمي الطويّة ، وافري السذاجة ، عاجلي الدهشة ، سريعي التصديق ، فركنوا إلى صحة ما رأوا أو سمعوا أو نقلوا من الكتب من الأخبار العجيبة ، وأثبتوها في رحلاتهم حقائق لا يعتورها شك . فقد عثروا على كنوز تزخر بالأساطير والخرافات ، والعجائب والغرائب ، والحكايات الشعبية ، فاغترف كثير منهم ما شاء منها ، لا سيما ثلاثة منها :

١– بلاد الشرق الأقصى ، وبخاصة الهند والصين .

٢– الأحياء البحرية العجيبة .

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٨٠٩

٣- كرامات الأولياء والصالحين .

وقد أثارت هذه القصص الشكوك فيها منذ عهود بعيدة . قال الجاحظ (١٦٣-٢٥٥هـ/ ٧٨٠-٨٦٩ م) : « ذكر بعض الحكماء أعاجيب وتزيُّد البحريين فقال : « البحر كثير العجائب ، وأهله أصحاب الزوائد ، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق ، وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد أن يكون ، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سُلّماً إلى ادِّعاء المحال .»[1] ولكن هذا الذي وصفه الأديب الكبير بالقلة فاض وتدفّق ، فملأ القصص الشعبية من أمثال حكايات السندباد في ألف ليلة وليلة .

ولكن بعض الرحلات أثارت من الشكوك بين الدارسين الشرقيين والمستشرقين أكثر من غيرها . فقد اعتبر شبرنجر Sprenger وجريجوريف Grigoriev رحلة سلام تضليلاً مقصوداً ، ورأى فيها مينورسكي Minorsky حكاية خرافية تنتشر فيها بضعة أسماء جغرافية .[2]

وذهب جريجوريف إلى أن رحلة أبي دلف لا تقوم على أساس من الواقع ، بل هي جمع لشتات ما قرأه وسمعه من آخرين ، أو هي خلط لا مثيل له في العرض . ورأى بارتولد أنها مدلّسة . واعتدل مينورسكي قليلاً فرأى أنها سلسلة من الوقائع التي لا يربط بينها شيء ، بعضها حقيقيٌّ وبعضها من نسيج الخيال .[3]

وأعلن كرامرز Kramers أن ميل أبي حامد محمد بن عبد الرحيم المازني الغرناطيّ إلى الغرائب في « تحفة الألباب ونخبة الأعجاب » واضح ملموس لا يمكن إنكاره .[4] وأجمع المتحدثون عن عليّ الهرويّ على أن رحلته غنيّة بالخرافات والأساطير .[5] كما سجّل يوسف بن يعقوب الدمشقيّ المعروف بابن المجاور في « تاريخ المستبصر » الروايات والأساطير المحلية التي كان يشعر

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٩١ (٢) كراتشكوفسكي ، ص ١٥٧ (٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ (٤) المرجع السابق ٣٢٧ (٥) زكي محمد حسن ، ص ٩٠؛ شوقي ضيف ، ص ٥٦

بميل شديد نحوها .[١]

وأخيراً نظر الباحثون إلى « عجائب الهند » لبزرك بن شهريار على أنها مجموعة من القصص كان بحارة الخليج العربيّ يسمرون بها ، فتلقفها عنهم بزرك ، ودوّنها ، ولعله أجرى عليها من التحوير ما تقتضيه الصياغة الأدبية ، لكننا لانستطيع أن نتبين وراءها رحلة معينة .

وتبقى أخيراً رحلات ابن بطوطة ، وقد أثارت من الشكوك ما عاصرها وما بقي إلى اليوم . وكان أول شك فيها من الرجل الذي صاغها ابن جُزَي ؛ إذ أعلن : « أوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار .»[٢] وكان أكثر ما أثار الشك ثلاثة أشياء :

١- حديثه عن الصين .

٢- حديثه عن القسطنطينية .

٣- قصص كرامات الأولياء التي أوردها .

فقد جاء حديثه عن الصين بعيداً عن الدقة ، حتى اتهمه فيران Ferran وغيره بأنه لم يزر لا الصين ولا الهند الصينية . و وقع بعض الخلط في حديثه عن القسطنطينية فأدّى إلى اضطراب التواريخ .

ومن الجدير هنا أن أذكر أن ابن خلدون أشار إلى الشكوك التي أحاطت بأخبار ابن بطوطة ، و حاول أن يضع معياراً لصحة الأخبار من أجل تطبيقه عليها . قال : « ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة . كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق ، وتقلّب في بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند ... وكان يحدّث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض . وأكثر ما كان يحدّث عن دولة صاحب الهند . ويأتي من أحواله بما

---

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٣٧٩-٣٨٠ (٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ١٣

يستغربه السامعون ... فتناجى الناس بتكذيبه .

« ولقيت أيامئذ وزير السلطان فارس بن وردار البعيد الصيت . ففاوضته في هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل ، لما استفاض في الناس من تكذيبه، فقال لي الوزير فارس : « إيّاك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تَرَه ، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن . وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه، ومكث في السجن سنين ، رَبا [كبر] فيها ابنه في ذلك المحبس . فلما أدرك وعقل سأل عن اللحم ، الذي كان يتغذّى به ، فقال له أبوه : " هذا لحم الغنم ." فقال : " وما الغنم ؟" فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ، فيقول : " يا أبت : تراها مثل الفأر ؟" فينكر عليه ويقول : " أين الغنم من الفأر ؟" وكذا في لحم الإبل والبقر ؛ إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر .»

« وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب ، كما قدمناه أول الكتاب . فليرجع الإنسان إلى أصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع ، بصريح عقله ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكان قبله ، وما خرج عنه رفضه . وليس مرادنا الإمكان العقليّ المطلق ، فإن نطاقه أوسع شيء ، فلا يفرض حدًّا بين الواقعات ؛ وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء ؛ فإنا إذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وصنفه ومقدار عظمة قوته ، أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله ، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه .»[1]

وعجل بعض الدارسين فوضموا الرحّالة العرب – دون تحديد أحد منهم – بأنهم نقلوا خرافات الشعوب وأساطيرها ، دون أن يحكّموا فيها العقل ، وملكة التحليل التي يبدو أنها كانت ضعيفة لديهم في غالب الأحيان .[2]

(١) المقدمة . طبع القاهرة ، ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤م ، ص ١٤٣ – ١٤٤

(٢) حسني محمود حسين ، ص ٩

واعتدل بعضهم فرمى بذلك أفراداً معيّنين ؛ فوصف الدكتور شوقي ضيف أبا حامد الغرناطي بأن ملكة نقد الأخبار عنده لم تكن واسعة [١] ، متفقاً في ذلك مع رينو الذي قال : «كان بوسعه تقديم خدمات كبرى في محيط الجغرافيا والتاريخ الطبيعيّ لو أنه جمع إلى طبيعته المتشوفة إلى المعرفة نصيباً أوفر من الاطّلاع وروح النقد .» وصرّح كراتشكوفسكي بأن كثيراً مما أورده على لسان غيره ليس ذا أهمية ، وذلك لسهولة تصديق أبي حامد للعجائب واعتقاده فيها .[٢]

و وصم عبد الباسط بن خليل الملطيّ بأنه سريع الدهشة ، سريع التصديق ، مع ميل واضح إلى الغريب والنادر ، شأنه في ذلك شأن معظم معاصريه .[٣]

وجهر الدكتور حسني محمود حسين بأن افتقار رحلة ابن بطوطة الشديد إلى النقد ، والنقد التحليليّ طبعها بطابع الرحلة الخرافية ؛ إذ هي في أجزاء كثيرة منها ضرب من الحكايات والأساطير الشعبية ، ولو استخدم التحقيق والتحليل والنقد محكا للنظر في الأمور لصفّى كثيراً من أخباره وغربلها ، وارتفع بقيمتها ، وبالتالي أكسب رحلته أهمية أكبر ، على غرار ما حاول ابن جبير في بعض الأحيان ، فكلاهما سمع في مكة ما يشيع بين الناس عبر الأجيال من فكرة زيادة ماء زمزم ، فأورد هو الخبر في سذاجة وبساطة ، كما سمعه على علاته ، برغم زيارته لمكة أربع مرات ، في حين أن ابن جبير أثبت بالتجربة بطلان هذا الاعتقاد .[٤]

وعلى الرغم من كل ذلك وأمثاله ، برأت الدراسات المتوالية كثيراً من الرحّالة مما اتهموا به ، وأثبتت صحة كثير من أقوالهم ومشاهداتهم ؛ فقد اعتبر دي خويه رحلة سلام الترجمان واقعة تاريخية لا شك فيها ، جديرة باهتمام العلماء ، وأيّده في هذا الرأي خبير ثقة بالجغرافيا التاريخية هو توماشك

(١) شوقي ضيف ، ص ٥٦ (٢) كراتشكوفسكي ، ص ٣٢٧ (٣) المرجع السابق ، ص ٤٨٣
(٤) حسني محمود حسين ، ص ٧٧

Tomashek .[1]

وأعلن كراتشكوفسكي أن رحلة أبي دلف إلى الصين واقعية حقيقية لا شك فيها ، وأن اهتمامه بظواهر الطبيعة يضطرنا إلى الوقوف موقف الاطمئنان من رواياته والبعد بها عن مواطن الريب الواهية .[2]

وقال عن أبي حامد الغرناطيّ : إن الدراسة العميقة التي قام بها ياكوب Jacob أثبتت أن التحليل الدقيق لرواياته – التي كانت تنسب قبلاً إلى محيط الأساطير– قد يكشف في كثير منها عن أسس واقعية ، وعن دقته الكبيرة في الملاحظة .[3]

وقال عن الهرويّ : « أسفر تحليل نقاط مختلفة من كتابه أنه لا يجب رفض مادته بحجة أنه رجل سهل التصديق لما يقال ومخادع ، وقد وكد العلم الأوربي الحديث إمكان استخراج معلومات مفيدة من رحلته ، على الأقل فيما يتعلق بتلك الأقسام التي أخضعت لأبحاث مستقلة ، وفي المادة الضخمة التي أوردها عن الصليبيين و وصف القسطنطينية . بل من الطريف أنه رغماً عن سهولة التّصديق لديه ذهب لمراقبة ثوران بركان أتنا ليتحقق بعينيْ رأسه من زعم أحد العلماء المحليّين الذي ادّعى أنه رأى السمندر salamandar يقفز في اللهب دون أن يحترق ، وتمكن الهرويّ أن يثبت أن فوهة البركان هي التي كانت تقذف بحجارة ملتهبة اتجاه البحر .» [4]

وقال عن ابن بطوطة : « إذا سلمنا جدلاً بالفرض القائل بأنه اعتمد في وصفه على القصص التي سمعها من الآخرين فثمّة تفاصيل معينة تجعل من العسير علينا التسليم التام بهذا الفرض .» ونقل عن البحاثة اليابانيّ ياماموتو قوله : « من العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين من نسج الخيال وحده . حقًّا إن وصفه المفصّل لتلك البلاد يشمل عدداً من النقاط

(١) كراتشكوفسكي ، ص ١٥٧ (٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ (٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٧ (٤) المرجع السابق ، ص ٣٤٧

الغامضة ولكنه لا يخلو أحياناً من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين ، فضلاً عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التي وجدت توكيداً في المصادر الصينية وفي أسفار ماركو بولو قد كانت من تلفيق مخيلته .» واستطرد يقول : « إن ياماموتو ساق حُجَجاً قوية للتدليل على أن مملكة طوالس – التي تحدث عنها ابن بطوطة وجلبت عليه الاتهام والسخرية – إنما هي شامبا التي كانت تقع بلا شك على الطريق بين الهند والصين .» وقال : « لعل ابن بطوطة كان ضحية القصص الخرافية التي رواها له المترجمون المحليّون عن تلك البلاد لجهله باللغات المحلية .» لكل هذا فإن روايته – حتى في حالات قصوى مثل هذه– لم تعد تثير الشكوك في نفس الباحثين المعاصرين كما كان الحال عليه من قبل ، خاصة أن رواياته عن مواضع مجاورة كجزر ملديف مثلاً أكّد الرحّالة المتأخرون صحتها برمتها .»[١]

وإذا عدنا إلى منهج المقدسيّ الذي أوردته آنفاً وجدناه يضع الضوابط لتجنب الخطأ ، فلم يسأل إلا ذوي العقول ومن لم يعرف بالغفلة من الناس أولاً . وحاول ثانياً ألا يكتفي بالقول الواحد ؛ فإذا ما تجمعت الأقوال لديه أمعن النظر فيها ، فما وجدها أجمعت عليه واتفقت فيه اطمأن إليه ، وما وجدها اختلفت فيه طرحه . وأخيراً عرض هذا الذي اطمأن إليه على عقله ، فما قبله أثبته في كتابه دون تحرُّج . وما لم يقبله أثبته مع التصريح باسم رواته أو ألمح إلى شكّه فيه بقوله : زعموا .

وقد صرّح فؤاد حمزة في العصر الحديث بأنه طبق مثل هذا المنهج أو قريباً منه في قوله : « اجتمعنا بأعيان البلاد ، واتصلنا بأشخاص ما كان الزمن ليسمح بالوصول إليهم ، وجمعنا معلوماتنا ، ورتبناها ، وبوّبناها على قدر الإمكان ، وعارضنا الأقوال والروايات .»[٢]

وليس معنى هذا أن هذين الرجلين وحدهما هما اللذان فعلا ذلك ، بل

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٤٦٦ (٢) في بلاد عسير ، ص ١٣ ، ١٧

يمكن القول إن كل الرّحّالة أو جلّهم فعلوه ، حتى هؤلاء الذين شكّ الشاكون في رواياتهم ، مثل أبي حامد الغرناطيّ ، فقد قال كراتشكوفسكي عنه : « إنه كان يبذل قصارى جهده لتوسيع نطاق معلوماته .»

ولو تتبعنا دراسات الدارسين لخرجنا بالصورة التالية للرّحّالة العربيّ ، أو الصورة المثالية له :

١– أحب فيه الدارسون الذكاء : أثنى الدكتورحسني محمود حسين على أحمد فارس الشدياق فقال : « أتاحت الفترة الطويلة التي عاشها الشدياق في لندن وباريس – وقد نيّفت على التسع السنوات ، زار لندن خلالها عشرين مرة، ونال فيها الجنسية البريطانية – أتاحت له فرصة الاطلاع والوقوف على دقائق الحياة الأسرية والعلاقات الاجتماعية في هذا المجتمع الأجنبيّ خاصة ، وقد ساعده كونه مسيحيًّا حتى ذلك الوقت على الاندماج في حياتهم . وتمكن بما تمتع به من ذكاء وقوة انتباه وملاحظة أن ينسخ صورة هذه الحياة نسخًا يكاد يماثل تمام المماثلة حياة البلدين حتى في كثير من دقائق التفصيلات فيهما .» [١]

وقال عن رفاعة رافع الطهطاويّ : « يجب علينا أن نتنبه إلى أمور عدة اجتمعت في ابن الصعيد هذا ، فهو رجل ذكاء ونشاط ومثابرة ، تميّز بروح شرقية صميمة ، وطبيعة خيّرة مخلصة ، عمّقتهما دراسة الأزهر في نفسه .» [٢]

٢– وأحبّوا فيه الأمانة وصدق الحديث : قال الدكتور سامي الدهّان عن ابن فضلان : «كان شديد الإيمان بالله ، عظيم التمسك بدينه وأخلاقه وتقواه ، ولا يخون الأمانة ولو خانها رفاقه ، على ثقافة دينية ، وصدق في الحديث ، وعفّة في المال .» [٣]

٣– وأحبَوا فيه سعة الأفق والتسامح : قال كراتشكوفسكي عن الوزير

---

(١) أدب الرحلة ، ص ١٣٨ (٢) المرجع السابق ، ص ١٢٤ (٣) رسالة ابن فضلان ، ص ٢٦ ، ٣٩

الغساني من أبناء القرن الثاني عشر الهجري / السابع عشر الميلادي : « سمحت له سعة أفقه وما اتّسم به من روح التسامح الشديد الغريب بالنسبة لمراكشي من عصره بأن يتجاذب أطراف الحديث بيسر مع رجال الدين الذين كانوا يلعبون دوراً خطيراً في أسبانيا لذلك العهد ، وأيضاً مع بقايا العرب المتنصّرين .»

٤- وأحبّوا فيه عمق التفكير وإعمال التأمل : قال الدكتور أحمد رمضان عن الهرويّ على الرغم مما وصم به : « نجد بين طيات كتابه وصفاً وأحاديث تدلُّ على دقة الملاحظة وعمق التفكير ، مثل قوله في مقدمة كتابه : ‹‹ وقد ذكر بعض أصحاب التواريخ جماعة من آل بيت رسول الله عليهم الصلاة والسلام – ومن الصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – قتلوا أو ماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر ، ولم أر في أكثر هذه الأماكن ما ذكروه . ولا شك أن قبورهم اندرست وآثارهم طمست ، وذهبت آثارها ، وبقيت أخبارها ...»[١] وسلب الدكتور حسني محمود حسين هذه الصفة عن ابن بطوطة في معرض نقده ، فقال : « يبدو شخصاً عاديًّا لا يتمتع بأية مواهب خاصة ، ولا ينعكس في رواياته أي أثر لفكر متعمّق ، أو نظر متأمّل ، أو ملاحظة دقيقة ، فمشاهداته يحكيها بكل بساطة وسذاجة .»[٢]

٥- وأحبّوا سلامة الحكم : قال الدكتور زكي محمد حسن في نقده لابن بطوطة : « لم يكن فقيهاً دقيق الملاحظة ، سليم الحكم مثل ابن حجر .»[٣]

٦- كما أحبّوا منه الموضوعيّة وعدم التحيُّز : قال الدكتورحسني محمود حسين في ختام كتابه : « هذه صور مجملة في أدب الرحلة عند العرب حتى القرن التاسع عشر الميلادي . وبعض النماذج البارزة فيه تخيرتها ممثّلة لاتجاهات هذا النمط الأدبيّ المختلفة من موضوعية تقترب من حدود الروح العلمية لدى

---

(١) الرحلة والرحالة ، ص ٢٨٦ (٢) المرجع السابق ، ص ٧٠ ، ٧٨ (٣) الرحالة المسلمون ، ص ١٣٦

ابن جبير إلى طراز الخرافة كما تجسّده رحلة ابن بطوطة إلى حدٍّ كبير... »[1]

ولذلك عابوا على اليعقوبيّ ميوله العلويّة ، وابن حوقل تعلقه بالفاطميّين ، وابن بطوطة إغراقه في الثناء على السلطان أبي عنان .

ولم تكن تلك الصفات أملاً لا ينطبق على أحد ، بل كانت واقعاً توفر لكثير من الرحّالة كما رأينا سابقاً ، وكما نرى في الأوصاف التالية .

٧- البحث : قال الدكتور زكي محمد حسن عن المقدسيّ : « كان بوجه عام دقيق الملاحظة ، باحثاً ناقداً ، يتحرّى تمحيص ما ينقل .» وعن عبد اللطيف البغداديّ : « لم يكن سائحاً عابراً ، بل كان يبحث ويتفهم ، فنراه – مثلا – قد سمع أن في القرية المجاورة للأهرام قوماً اعتادوا ارتقاء الهرم بدون عناء ، فاستدعى أحدهم وأعطاه شيئاً من النقود ، وطلب إليه أن يصعد إلى قمته ، وأن يقيس أبعاده عندها ، ولكنه لم يطمئن بعد ذلك إلى قياسه ، فدوّن رأيه في خطأ هذا القياس . وعلّق عليه بقوله : ‹‹ وإن ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسي .›› »[2]

٨- التدقيق والتّمحيص والنّقد : كما رأينا في كثير من الأخبار والأقوال السّابقة ، قال الدكتور حسني محمود حسين عن ابن جبير : « النجاح الأهم الذي يسجّله ابن جبير في رحلته إنما هو في مجال الحياة الاجتماعية ، وفي هذا المجال تتجلّى قدرته على الملاحظة وملكته في هذا النّقد والحكم ، ولا غَرْوَ فهو على الأغلب ذو خبرات في الحياة ناضجة ، بحكم عمله وسنه .» وأثنى على ميل الشدياق الواضح إلى التّحقيق في مدى صحة الأمور وصدقها ، ويبلغ في ذلك درجة كبيرة من التّدقيق أعانه على الوصول إليها استقراره مدة طويلة في البلاد التي كتب عنها ، بالإضافة إلى ما تمتع به من ملكة نقدية ، جعلت من العسير على عقله التسليم بكل شيء دون مناقشة أو جدال .[3]

(١) الرحلة والرحالة ، ص ١٦٥ (٢) الرحالة المسلمون ، ص ٤٣ ، ١١٤ (٣) أدب الرحلة ، ص ٣٥ ، ١٥٥

ومهما يكن من شيء ، فلا شك أن كثيراً من الرحّالة العرب حاولوا أن يضمنوا للمادة التي اعتمدوا عليها في رحلاتهم الصِّحَّةَ ، وأن يكشفوا عن ذلك في مدوناتهم .

١– فأعدَّ فؤاد حمزة عدداً من الأجهزة العلمية قبل أن يشرع في رحلته . قال : « أما من الوجهة العلمية ، فقد أحضرت ما أمكنني تداركه من الآلات البسيطة التي يستعين بها الروّاد ، وأعددت كشوفاً وأوراقاً خاصة لتسجيل الأبعاد والانحرافات المغناطيسية ودرجة الحرارة والبارومتر ... أما أدواتي العلمية فقد كانت مؤلفة من :

(١) بوصلة مضبوطة (٢) بارومتر

(٣) ميزان حرارة (٤) شريط مساحة

(٥) جداول وكشوف جغرافية وفنية (٦) آلات تصوير من قياسين

« وكان عداد السيارة يقوم بمهمة تسجيل المسافات ...

« واصطحبت صديقاً من المهندسين لكي يفيدني في أخذ قياسات الانحراف المغناطيسي ورسم خريطة الطريق ...

« أما الأرصاد العلمية فإننا كنا نتخذ عدّاد السّيّارة أساساً لقياس المسافات ، وكنا نعارض عدادي السيارتين ليتبين لنا الفرق بينهما . وحينما ظهر لنا أن الفرق بين العدادين جزئيٌّ جدًّا – قررنا الاعتماد على أحدهما ، وبناء على ذلك فقد وجهنا اهتمامنا إلى تسجيل قراءات الانحراف المغناطيسيّ في البوصلة في مسافات معينة ، وكانت القراءات في الأماكن الفسيحة السهلة أقل منها في الأماكن المتعرجة أو الكثيرة المنحنيات ...

« وأما الاتجاهات التي كنا نرصدها فقد كانت دائماً اتجاهات طريقنا . وكنا نعتمد على مشاهدة شجرة أو قلعة لنسجِّل الرصد عليها ، غير أننا وجدنا أن عملنا يكون أضبط وأدقّ لو تقدمتنا السيارة الكبيرة لنتخذها هدفاً للرصد ...

كما كنا نأخذ أرصاداً متعددة من نقطة واحدة إلى اتجاهات مختلفة عن اتجاه طريقنا ... وكنا نسجل درجة الحرارة ثلاث مرات في اليوم ، صباحاً وظهيرة ومساء . وأما البارومتر فكنا نسجله كلما تراءى لنا أننا في صعود وارتفاع ، وكنا نسجل القراءات بالإنش [البوصة] وأقسامه وبالقدم أيضاً ، لأننا نعلم أن استحصال الارتفاع بتعديل قراءات البارومتر على درجة الحرارة أدقُّ من قراءة الارتفاع بالأقدام .» [1] وقد ظهرت آثار ذلك في الرحلة كلها فعلاً .

٢- واعتمد أحمد فارس الشدياق على الإحصاءات ، بل بلغ من حرصه عليها أن أضاف إحصاءات جدّت إلى رحلته الأوربية بعد طبعتها الأولى ، ولكنه أسرف حتى عابه الدكتور حسني محمود حسين بأن كثيراً من هذه الإحصاءات لا ضرورة لها ولا فائدة منها ، حتى للفرد الإنجليزيّ أو الفرنسيّ ؛ إذ ما فائدة أن يعرفنا بعدد مستخدمي بريد لندن مثلاً وميزانيته وعدد الرسائل التي ينقلها ؟ [2]

٣- واعتمد التجانيّ خاصة على الوثائق ، فوعد في مقدمة رحلته أن يورد ما أمكنه منها . قال : « وقد ألبس ذلك من حلة النظم والنثر ، مما ورد في هذه السفرة إليّ أو صدر عني ؛ استفتاح خطاب ، أو ردُّ جواب ، ما تحسن المحاضرة به ، وتحصل الإفادة – إن شاء الله تعالى – بسببه .» [3]

وقد أشاد حسن حسني عبد الوهاب بهذا السلوك منه ، قائلاً : « ومما يلفت النظر في الرحلة أن صاحبها أورد في غضونها وثائق تاريخية بنصها الأصليّ ، وقلما رأينا رحّالا يأتي بمثل هذه النصوص المهمة ، ومن أخطرها ذلك السجل الصادر عن الحسن بن عليّ آخر الأمراء الصنهاجيين المعلن بانتصاره على جيش النرمانديين في وقعة الديماس بالساحل التونسيّ .» [4]

« وأود أن أشير إلى استخلاصه ألقاب قراقوش مما كان يصدره من أوامر .

---

(١) في بلاد عسير ، ص ١٢ ، ١٣ (٢) أدب الرحلة ، ص ١٦٤ (٣) رحلة التجاني ، ص ٣

(٤) المرجع السابق ، ص مط

قال : « وكان يقال لقراقوش : المظفّريّ ؛ لأنه مملوك الملك المظفّر ؛ والناصريّ، لأنه كان يخطب للملك الناصر صلاح الدين ، وكذلك كان يكتب في ظهائره . وقفت على ظهير بتوسيع أملاك لبعض أهل طرابلس سمّى فيه نفسه : (قراقوش الناصريّ وليُّ أمْر المؤمنين) بسكون الميم في لفظ (أمر) وكتب علامة الظهير بخطه (وثقت بالله وحده) وتاريخ الظهير (عام تسع وسبعين) . وكان [يحيى بن إسحاق] الميورقيّ يكتب العلامة في كتبه (وثقت بالله وحده) ويجعلها في أسفل الرقم . » »[1]

٤ – واعتمد بعض الرحّالة على النقوش والكتابات الأثرية ، فقد دوّن الهرويّ نقوشاً ذات قيمة تاريخية كانت بمسجد عمر بن الخطاب في القدس واندثرت بعد ذلك . واعتمد التجانيّ على إحدى الكتابات في البتّ فيمن بنى أحد القصور في مدينة قابس بتونس . قال : « أهل قابس ينسبون بناءه لرشيد بن مدافع بن جامع ، أحد من تملكها منهم ... وقد وقفت في بعض أبواب القصر على أسطر كتبت نقشاً في الحجر ، نصها : « أمر بعمل هذا الباب الأمير الشهم رافع بن أمير الأمراء مكي بن كامل بن جامع في رجب سنة خمسمائة » فإن كان ما يذكره أهل قابس من أن رشيداً هو الذي ابتناه صحيحاً ، فيكون هذا الباب خاصة هو الذي أمر ببنائه رافع بن مكي . وأخبرني بعض الطلبة من أهلها أنه وقف لبعض المؤرخين على أن صنهاجة هم الذين ابتدئوا بنيانه وانتهوا به إلى قدر ثلثيه ، فأتمه بنو جامع الهلاليون . »[2]

بل بلغ الأمر بالتجانيّ أن حاول قراءة الخطوط غير العربية . قال عن موضع يعرف بتَجَفْت : « بسيط متسع من الأرض ، رأينا به وبسائر هذه المسافة آثاراً قديمة ، ومباني مختلفة الأشكال ، ومصانع [أحواضا] للمياه مصنوعة . وقد سقط من كثير من تلك المباني أحجار مرسومة بخطوط ليست من خطوط أهل زماننا هذا ، فإني استدعيت كثيراً من النصارى لفكّها فلم يعرفوها . »[3]

(١) رحلة التجاني ، ص ١١٤ (٢) المرجع السابق ، ص ٩٥ (٣) المرجع السابق ، ص ١٣٣

وكذلك فعل عبد الغني النابلسيّ بعض فعل التجانيّ . قال : « وجدنا في الجهة المرتفعة من ذلك المزار ماء جارياً في فسقية مبلط ما حولها بلطائف الأحجار ، مؤذنة بأنه كان عليها في الزمان الأول قبة مرتفعة ، والماء ينزل إليها من عين في أعلى الجبل متسعة . و وجدنا حجراً كأنه كان مبنيًّا في تلك القبة ، وهو موضوع على العكس في بنيان هناك ، وأحرف كتاباته منكبة ، فقرأناه بعد جهد جهيد ، و وجدنا فيه أبياتًا متضمنة تاريخ بناء تلك القبة ، وذلك البناء الذي كان مشيَّداً . وهذا النظم منسوب إلى السيد عبد الكريم من أهل كرك نوح عليه السلام ، وهو قوله عليه رحمة الملك العلام :

هذه قبةٌ لها تقديسُ ... كعروس لها الجمال النفيسُ

بين نوح وبين شيث تراها ... ذاتَ نور يُضيء منه الحبيس

وهي محفوفة بجنات وردٍ ... وثمارٍ قطوفها لا تخيس

شادَ أركانهَا الأميرُ عليٌّ ... وله في خلائقها تأسيس

ولها رونقٌ بحضرة أيْلا ... نزهة الواردين وهو الأنيس

إن تاريخها الأمير ابن موسى ... قد بناها ، فحبّ نعم الجليس

وذلك سنة تسع وتسعين وتسعمائة من الهجرة . والحبيس المذكور في الأبيات مكان منتزه في الفرزل – بضم الفاء ، وسكون الراء المهملة ، وزاي مضمومة ، ولام ، قرية هناك .»[1]

وقال كراتشكوفسكي عن أحمد بن مهدي الغزّال (المتوفى في ١١٩١هـ/ ١٧٧٧ م) صاحب رحلة « نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد » : « يقدم لنا في كل خطوة من خطوات رحلته معطيات هامة عن الآثار والنقوش التي رآها ، وتفاصيل عن الأبنية . ولا يمكن بالطبع أن يُعدّ عالمًا من علماء النقوش epigraphist ولكن من شأن روايته أن تجتذب أنظار عالم الآثار .»[2]

(١) حلة الذهب الإبريز ، ص ٩١ (٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ٨٥٤

ولم يكتفوا بالتّدقيق في المادة التي ضَمّنوها كتبهم ، فلجئوا إلى التدقيق في طريقة عرضها ، لتجنب القارئ الخطأ في معرفتها :

١- فاعتمد ابن المجاور على إبانة خطوط الملاحة ؛ إذ كان - فيما يبدو - مولعاً أشد الولع بالمسائل الملاحية .[١]

٢- واعتمد غيره على خطوط الطول والعرض ، كما فعل عبد اللطيف البغداديّ في حديثه عن النيل وأسوان ودمياط [٢]، وعبد الرحمن بك سامي في حديثه عن بيروت ودمشق[٣] ، ولا شك أن ذلك صار في ميسور المحدثين أكثر مما كان قديماً .

٣- ويعتمد المحدثون من الرحّالة على الخرائط ، التي صار من اليسير شراؤها من أي مكتبة من المكتبات . وقد آثر كثير من محققي الرحلات القديمة وناشريها أن يضيفوا إليها الخرائط التي تبين طرق سيرها . أما القدماء فقد رسمها الجغرافيّون منهم ، أما الرحّالة غير الجغرافيّين فلم يفعلوا ذلك .

٤- كذلك يعتمد المحدثون على الصور ، ولذلك نرى من أول ما يعنى الرحّالة الحديث بإعداده الكاميرا . قال اللواء إبراهيم رفعت باشا : « كنت أرى مناظر جميلة وآثاراً ثمينة ومشاهد ، مهما دققت في وضعها لا أصل بك إلى الحقيقة ، ولا أدخل من الروعة في نفسك ما تدخله المشاهدة والرؤية . وكنت أتمنّى مُصوّراً ماهراً يحبس ما نرى من المناظر . وكنت أودُّ أن أكون ذلك المصوّر ، فلما رجعت من حجتي الأولى ، تعلمت فن التّصوير ، وجعلته مَسْلاتي في وقت فراغي . ونَزَعت نفسي إلى حجة أخرى أُقيِّد فيها الصور ، فأنالني الله بغيتي ، ومنّ عليّ منة أخرى في سنة ١٣٢٠هـ(١٩٠٣ م) ... »[٤]

٥- واعتمد القدماء والمحدثون على ضبط أسماء الأماكن التي يذكرونها لغرابتها . أما القدماء فنصّوا بالعبارة على حركات الضبط ، كما رأينا عند ابن

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ٣٧٩ (٢) الإفادة والاعتبار ، ص ١٧ (٣) القول الحق ، ص ٩ ، ٥٨ (٤) مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص٣

بطوطة والتجانيّ وعبد الغنيّ النابلسيّ . وأكثرهم اهتماماً بالضبط التجانيّ ، وأما المحدثون فيكتفي أكثرهم بالتشكيل في المطبعة .

٦- كذلك اعتمد الرحّالة على تحديد تواريخ الأحداث في دقة تامة ، وبخاصة من جعلوا رحلاتهم يوميات ، فاكتفى بعضهم بالتصريح باليوم الأول أو الثاني أو الثالث مثل النابلسيّ ، وذلك أمر هيّن في الرحلات القصيرة ، غير أنه لا يصلح للرحلات الطويلة . وذكر أكثرهم تاريخ اليوم ، وفي رأيي أن ابن جبير وصل إلى قمة التحديد عندما أرّخ للأيام بالتقويمَيْن الهجريّ والميلاديّ . وفي هذا القرن أضاف بعض الرحّالة التحديد بالساعة بعد أن كان التحديد المعروف بالصباح أو الظهر أو الليل . يقول عبد الوهاب عزام : « هذه قنطرة القناة والساعة عشر من مساء السبت ثامن عشر شعبان سنة ١٣٤٨ هـ (ديسمبر ١٩٣٠م) ... خرجنا والساعة ثلاث بعد الظهر نسير شطر الناصرة قرية المسيح عليه السلام ... بلغنا الناصرة ... والساعة سبع من مساء الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان (٢١ ديسمبر) .»[١] ويقول عبد الرحمن بك سامي : « بارحنا دار السعادة العلية يوم الخميس في ١٩ يونيو سنة ١٨٩٠ الساعة الخامسة بعد الظهر... »[٢] ويقول فؤاد حمزة : « مشينا من القرشية حوالى الساعة الثامنة صباحاً... »[٣]

وعلى الرغم من كل ذلك ، لا أستطيع أن أدّعي أن الرحّالة جميعاً طبّقوا كل هذه الخُطَى من خطوات النّقد والتّمحيص والتّدقيق ، فسَلموا من كل شَيْن ، وبرئوا من كل عيب .

فالرجال - والرحّالة منهم - يتفاوتون في القدرات المتنوّعة ، ونظرات أهل القرون المتباعدة إلى المعقول والممكن والخرافيّ من الأمور متنائية ؛ ومن ثمّ آمن كثير من الرحّالة القدماء بما يتعذّر على عقولنا الحاضرة تصديقه ، ورووْا أخباراً أثارت الشكوك .

(١) رحلات ، ج ١ ، ص ١ - ١٠ (٢) القول الحق ، ص ٧ (٣) في بلاد عسير ، ص ٢١

وقد حاول الدارسون أن يبرّروا هذه الأخبار ، فذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن الخوف لعب بخيال الرحّالة – وبخاصة الرحّالة في البحار – فصوّر لهم كثيراً من الأوهام حقائق ، وجسّم لهم بعض الحقائق الصغيرة أشياء مفزعة خطيرة .(١)

وذهب كثيرون إلى أن شيوع القصص البحريّة الشعبيّة في العصور الأولى ، والقصص الصوفيّة عن الأولياء والكرامات في العصور المتأخرة – أثر في الرحّالة تأثيراً واضحاً ، فحمل بعضهم على قبول ما يُروى له منها أو ممّا ماثلها . وأغرى بعضهم الآخر بحبّها وإيراد بعضها ؛ فكان هؤلاء الرحّالة ضحيّة هذه القصص الشعبيّة التي شبوّا على سماعها وتصديقها ، وتهيّأت عقولهم ونفوسهم على الإيمان بما شابهها .(٢)

وأضاف الدكتور شوقي ضيف أيضاً أن الرحّالة – أو بعضهم – كانوا يكتبون بمخيلة القصّاص ، الذي يسند الواقع بالخيال ، والحقيقة بالأسطورة.(٣)

فإذا ارتضينا ذلك ، كان علينا أن نتعامل مع كثير من هذه الرحلات تعامُلنا مع فنّ الأدب ، فنبحث عن صدقها الفنّي لا عن صدقها الواقعيّ ، بل يجب أن نبحث عن لون خاص من الصدق ، ذلك هو الذي يوجد في القصص الشعبيّة أو ما قاربها من القصص الأدبيّة . ويجب علينا أن نغتفر المبالغة – أو الكثير منها – التي مال إليها القصّاص ، لإغراء القرّاء بقراءتها .(٤)

* * *

---

(١) الرحلات ، ص ٢٨ (٢) كراتشكوفسكي ، ص ١٦٩ ، ٤٦٧ ؛ زكي محمد حسن ، ص ١٣٩ ؛ سامي الدهان : رحلة ابن فضلان ، ص ٤٠ (٣) الرحلات ، ص ٦ ، ٤١ (٤) كراتشكوفسكي ، ص ٧٩٠ ، ٨٣٥ ؛ زكي محمد حسن ، ص ١٣٩ ؛ جورج غريب : أدب الرحلة ، ص ٦٤ ، ٦٨ ؛ شوقي ضيف ، ص ٦٠

الفصل الثالث
أنواع الرّحلة

١ – الرّحلة الشعريّة

الماء قوام الحياة . تلك حقيقة قد يغفل عنها ساكن البقاع ذوات الأنهار الدائمة أو الأمطار الغزيرة ، ولكن البدويّ ساكن الصحراء لا يغفل عنها أبداً ؛ فالمطر القليل الذي يسقط زمناً بل أزماناً أحياناً ، ويصيب أرضاً ويخطىء أخرى ، ويمكن حجزه في موضع ويتعذّر في آخر – كان هذا المطر موجّه حياة ذلك البدويّ.

يتيح له أن يقيم في موقع ما هطل عليه أو أمكن الاحتفاظ به في وديان أو غدران أو آبار أو سدود وما شاكل ذلك من خزّانات المياه ، ويجبره أحياناً على الرحيل إلى أماكن قريبة مع تغيُّر الفصول ، سمّاها المصطافات والمرتبَعات (الربيع هو فصل المطر في نجد التي هي سرّة بلاد العرب) ، وأحياناً إلى أماكن بعيدة بحثاً عن مواقع المطر ، وفي بعض الأزمنة إلى مغادرة البلاد إلى الأقطار الأخرى ، كما حدث للهجرات السامية المتوالية إلى العراق والشام ومصر وشرقيّ إفريقيا وشماليّها .

ولذلك كانت الرحلة واقعاً مألوفاً في حياة البدو العرب ، قصيرة كانت أو طويلة ، وكان لذلك في الشعر العربيّ آثار بعيدة ، بدأت مع ما عرفناه من بداياته ، وعاشت معه طوال عمره . وكان بعض هذه الآثار مباشراً ، يتتبّع الرحلة بالتصوير ، وبعضها غير مباشر يتحدّث عمّا أحدثته تلك الرحلات في الحياة الاجتماعيّة والفرديّة .

ويمكن أن نقول : إن ما نشب بين القبائل من الخصومات الواسعة

والحروب التي بلغ من كثرتها أن سمّوها أيامًا ، هو من تلك الآثار . ولكنني لن أتحدَّث عنها ؛ وإنما أتخطّاها إلى آثار أكثر قربًا ، وعذوبة ، وخصوبة .

فحياة مثل تلك التي وصفتها كانت تجمع كثيرًا بين القبائل ذات النسب الواحد أو المواضع المتّصلة بسبب كثرة الماء . وكانت في الوقت نفسه كثيرًا ما تفرّق بينهم ، وتشتّتهم في المواضع المتباعدة – فرقة وقتيّة أو أبديّة – فتتقطّع علاقات كانت قد وجدت وتوطّدت : علاقات أهمُّها ما كان بين الشباب من الجنسين . وكانت ثمرة تلك الرحلات :

– بكاء الحب المفقود .

– التَّردُّد عمدًا وصدفة على مواضع الذكريات ، واستعادة ما كان ، وبكاء ما آل إليه الموضع من بقايا مهدَّمة سمّتها اللغة بالأطلال .

وكان ممن فعل ذلك شعراء ، فصاغوا مشاعرهم شعرًا ، وعندما ابتكر بعضهم نظام القصائد ابتدءوا – أو ابتدأ واحد منهم – قصيدته بهذه الوقفة على الأطلال ، والبكاء على الحب الضائع .

ويبدو أن أحد أولئك الواقفين – وهو امرؤ القيس بن حذام الكلبيّ [1] – أبدع في منظومته ، فلفت الأنظار إليها ، وحاز الإعجاب فرأى أمير الشعراء العرب – امرؤ القيس بن حجر الكنديّ – أن يقلّده فيما فعل ، ومنحنا إقرارًا بذلك أعلنه في قوله :

عوجا على الطلل المُحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام

ونجحت فعلة الكنديّ نجاحًا بعيدًا ، فاقتفى أثره فيها جمهرة من أصحاب القصائد ، وصار الوقوف على الأطلال واحدًا من الأعراف الشعرية في الجاهلية بل في الإسلام أيضًا ؛ إذ كانت الحياة في شبه الجزيرة العربية تضمن له البقاء.

ولم يقتصر الشعراء في المقدمة الطلليّة على الوقوف على الأطلال وحدها

(١) اختلف العلماء في اسم هذا الشاعر وقبيلته وحقيقته ، فاخترت أشهر ما قالوه .

بل اتسعوا فيها ، وضمّنوها أشياء متعدّدة تنبع كلها مما يشعرون به من انفعالات في هذه الوقفة . فقد حدّدوا مواضع هذه الأطلال ، وصوّروا ما أصابها من تهديم ، وما حلّ بها من حيوانات ، واستعادوا ذكرياتهم الزائلة ، ووصفوا حبيباتهم ، وتتبعوا رحلات فراقهن ، ورأى بعضهم أن يلحق بهن .

وعندما صار النقد علماً في العصر العباسيّ ، تعرض المحافظون من النُّقّاد لهذه المقدمة ، ورصدوا ما شاع عند جمهرة الشعراء فيها ، وجعلوا النتائج التي توصّلوا إليها قوانين يجب أن يحافظ الشعراء عليها. .

ونجد أوضح وأشمل تعبير عن ذلك عند ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ/ ٨٢٨- ٨٨٩ م) الذي قال يصف قصيدة المدح بخاصة : « سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصِّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الدِّيار والدِّمَن والآثار ، فبكى وشكا وخاطب الرَّبْع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين [الراحلين] ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدّة الوجد ، وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ؛ ليُميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعي به إصغاء الأسماع ؛ لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط [لاصق] بالقلوب ، كما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً به بسبب ، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام .

« فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له ، عقّب بإيجاب الحقوق ، فرَحَل في شعره ، وشكا النَّصَب [التعب] والسهر ، وسُرَى الليل ، وحرَّ الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير .

« فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه [ممدوحه] حقَّ الرجاء ، وذمامة [حق] التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزّه للسماح ، وفضّله على الأشباه .»

ثم أضاف ابن قتيبة : « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر... »[1]

نتبين من هذا أن ابن قتيبة وأمثاله رأوا أنه لا بدّ من المقدمة التي تتألف من الوقوف على الأطلال والغزل و وصف الرحلة ، وقد أكّد هذا القول فيما بعد ابن رشيق (٣٩٠-٤٦٣هـ / ١٠٠-١٠٧١م) الذي عاب الشعراء الذين يهجمون على الغرض الأساسي من قصائدهم ، ولا يجعلون لها افتتاحاً من النسيب ، و وصفها بالبتراء .[2]

بل أعجب من ذلك أنهم حدّدوا للشعراء الطريق الذي يجب أن يسلكوه في المقدمة الطلليّة . قال ابن قتيبة : « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدّمين في هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مشيد البنيان ، لأن المتقدّمين وقفوا على المنزل الداثر ، والرسم العافي ؛ أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدّمين رحلوا على الناقة والبعير ؛ أو يَرِد على المياه العذاب الجواري ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي ؛ أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جَرَوا على قطع مَنابت الشّيح والحَنْوة والقرارة »[3] من الرياحين البريّة .

ولما درس الدكتور وهب رومية هذه الرحلات الشعرية في العصر الجاهليّ ، تبين أنها تحتوي على خمسة عناصر ، تختلف القصائد في الاحتفاظ بها ، وهي :

١- إعلان خبر الرحيل .

٢- مماشاة الركب والوقوف عند معالم الطريق .

٣- وصف الظعائن (أي النساء المسافرات) والهوادج .

٤- ذكر النساء والتحدُّث إليهن .

---

(١) الشعر والشعراء ، ص ٢٧٩ (٢) العمدة ، ج ١ ، ص ٢٣١ (٣) الشعر والشعراء ، ص ٧٦

٥- موقف الشاعر من الظعائن المتحملة .

ولم يتحدث الشعراء عن رحلات الظعائن فقط ، بل تحدّثوا عن رحلاتهم هم أيضاً ؛ إذ كانت الرحلة على ناقة الأمر الذي يلجأ إليه الشاعر ليسري عن نفسه ما تحمل من هموم . قال طرفة بن العبد في معلقته :

وإني لأمضي الهمَّ عند احتضاره   بعوجاء مِرْقال تروح وتغتذي

وكان الشاعر عادة يتخذ من هذا القول منطلقاً إلى وصف ناقته وأحياناً رحلته .

ويبقى الحديث عن الرحلة الأخيرة التي لا تتصل بالمقدمة الغزليَّة أو الطلليَّة وإنما بالغرض المدحيِّ ؛ فقد أَلِفَ الشعراء – كما قال ابن قتيبة آنفاً – أن يصفوا المصاعب والأهوال التي واجهوها في رحلاتهم التي اضطرّوا إلى القيام بها ليصلوا إلى من يمدحونهم ، وكان الهدف من هذا الوصف البرهنة على استحقاقهم عطاء الممدوح .

وبقيت هذه التقاليد حيَّة في الشعر العربيِّ إلى أن قضى عليها الرومنسيّون في هذا القرن .

***

وعرف التراث العربيُّ نوعاً آخر من الرحلات الشعريَّة ؛ فقد عرفت الحياة العربية أسرة اشتغل أفرادها بقيادة السفن ، ومهروا في ذلك فعُرفوا باسم المعلمين ؛ تلك هي أسرة ماجد السعدي النجديِّ .

أما ماجد فقد دوَّن تجاربه البحرية في مصنَّف ضخم سمّاه « الأرجوزة الحجازيَّة » ، وضم أكثر من ألف بيت ، وصف فيها الملاحة على سواحل البحر في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي .

وأما ابنه أحمد بن ماجد فقد صنَّف ألفيَّة أخرى ، ومجموعة من المنظومات

الأخرى دعاها بالأراجيز ، وإن كانت لا تقتصر على بحر الرجز ، وتفاوتت أبياتها بين عشرين وستمئة . وفي معظم الأحوال وصف في كل واحدة منها طريقاً معيّناً ، فكانت في عصرها أشبه بالمرشدات البحريّة . ويتّضح من هذا أنها ليست من الفنّ الشعريّ في شيء ، وإنما منظومات تندرج تحت الشعر التّعليميّ .

* * *

وعرف التراث العربيُّ قصيدة نكاد نجهل كل شيء عنها . فقد رافق قسٌّ مجهول يُسمىّ عيسى ، يواكيم الرابع بطريرك الكنيسة الأنطاكية في رحلته إلى موسكو ، التي استمرت قريباً من الشهرين من ١٧ يونيه إلى ١١ أغسطس ١٥٨٦م (٩٩٥ هـ) . ونظم هذا القس قصيدة لا نعرف منها غير ما اقتطفه بولس بن الزعيم الحكيم ، الذي يكشف أنه وصف رحلته هذه فيها ، والأمر الذي يُؤسف له أن هذه القصيدة لم تلقَ غير النقد .

فأعلن الأب لويس شيخو أنها وصف عاديٌّ للغاية لكنائس وأديرة روسيا وبلاد الأفلاخ ، لا يشغل أكثر من خمس صفحات . وعلل كراتشكوفسكي هذا الموقف بملكانيّة الناظم ومارونيّة الناقد ، كذلك نقدها الحكيم بشدة القصر والاستطراد إلى التوافه .[1]

وفي ظنيّ أن القصيدة لا ترتفع كثيراً عن المنظومات التعليمية ، نظراً إلى العصر الذي أُلّفت فيه ، والوسط الذي خرجت منه ، وما بقي عندنا من وصف لها .

وأخيراً تبقى أغرب الرّحلات الشعريّة ، وهي القصيدة الأسبانيّة المدوّنة بحروف عربيّة ، من أدب الموريسيكيّين المعروف باسم الألخميادو Aljamiado وسبق أن تحدثت عنها .

(١) تاريخ الأدب الجغرافيّ ، ص ٧٨٢ – ٧٨٤

٢ – الرِّحلة النثريّة

أنماط الرِّحلة النثريّة :

إذا تركنا الشعر إلى النثر ، أحسَسْنا أننا انتقلنا إلى مجال فسيح لا حدود له ، لأن النثر هو الموطن الطبيعيُّ للرِّحلة . ولذلك يمكن أن نجد فيه أشكالاً فنيّة مختلفة ، وأنماطًا متعدّدة .

وأوّل الأشكال نسميّه التقارير الرسميّة ، وينطبق على الرحلات التي كان السبب فيها أمراً رسميًّا مثل السِّفارات ، فإن الرحّالة يحسُّ بعد عودته بوجوب أن يقدّم تقريراً عن مهمته فيفعل . وأقدم رحلة من هذا الشكل رحلة سلام الترجمان التي رفعها تقريراً إلى الخليفة الواثق . ومن الطبيعيّ أن يميل الرحّالة في مثل هذه الرحلة إلى محاولة أن يرضي الحاكم الذي يقدم التقرير له ، فيلجأ إلى مدحه بل إلى الإسراف فيه .

وأشهر هذا النمط من الرحلات رحلة ابن فضلان ، التي قال عنها محقّقها الدكتور سامي الدهان : « إنها أشبه ما تكون بالتقارير الرسمية التي يكتبها السفراء اليوم عن بلاد عجيبة غريبة .» ثم أعلن أنه وُفّق في ذلك أشد التوفيق ، بل وُفّق أكثر من بعض السفراء الدبلوماسيّين لعصرنا في تقريره ، فنحن نرى في خلطهم اليوم في فهم الشعوب وعاداتها وتقاليدها ما يجعل ابن فضلان سيّداً من سادة الساسة في عصره وغير عصره .[١]

ولعل ذلك هو الذي حمل ابن فضلان على تنظيم رحلته أحسن التنظيم ، فافتتحها بإبانة أسباب القيام بها ، ورفقة الرحلة معه ، وبعض ما استعدّوا به لها ، ثم وصف مراحلها واحدة بعد أخرى إلى أن انتهى إلى بلاد الخزر ، دون

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ٤٠

أن يخلط بينها أو يعمد إلى الاستطراد .

وثاني الأشكال الرسائل ، أي المكاتيب التي يدوّنها أحد الأشخاص ويبعثها إلى صديق أو قريب ، وفي أحايين إلى أحد الحكام . وأقدم رحلة من هذا الشكل رحلة أبي دلف إلى الصين ، فقد عثرنا في أحد المخطوطات بمدينة مشهد في إيران على وصف لهذه الرحلة في شكل رسالتين منفصلتين . ولا تهتم الرسالتان بنظام اليوميّات ، ولا تأبهان كثيراً لوصف الطريق ، وقد نعلّل ذلك بأنه من أثر الشكل الذي اتخذتاه . وغير بعيد أن يكون السبب أن الرحّالة دوّنهما بعد مدة طويلة من حدوث الرحلة ، ومن ذاكرته .

وتنتمي إلى هذا الشكل رحلة العالم الطبيعيّ المختار بن المحسن (المتوفى نحو ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) الذي تنقّل بين بغداد وحلب وأنطاكية واللاذقية والقاهرة ، ثم بعث إلى صديقه هلال بن المحسن الصابي رسالة ، وصف فيها انطباعاته عن الطريق من العراق إلى شمال الشام . وقد حفظ هذه الرسالة محمد بن هلال بن المحسن في « كتاب الربيع » ، وعنه نقل ياقوت والقفطي مقتطفات ، هي التي وصلت إلينا .

كذلك سافر إبراهيم الحكيم الحلبيّ من حلب إلى مصر سنة ١١٧٣هـ/ ١٧٦٠م وأقام بها سنتين . وفي رسالة طويلة له ، بعث بها إلى أحد أصدقائه ، وصف هذه الرحلة التي اجتاز فيها لبنان ، ثم ركب سفينة من بيروت إلى دمياط ، كما وصف انطباعاته في القاهرة . ولما كان الرجل ذا ميول أدبية معروفة ، فقد سلك في رسالته مسلك كتّاب عصره .

و وصف الدكتور عبد الوهاب عزّام أربعاً من رحلاته إلى بناته : عُلَية وبثينة ، وعزة .[1] والحق إنه لا يصف الرحلة ، ولا يتتبع مراحل طريقها ، ولا يلتزم ترتيب أحداثها ؛ وإنما يختار منها مشهداً أو عدداً من المشاهد ، تجتذب اهتمامه لسبب ما ، فيمنحها انتباهه ومشاعره وفكره ، فيتحدث عمّا جاش

(١) رحلات ج ١ ، ص ٢٥٨ / ٣٥٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ؛ ج ٢ ، ص ٤٠٦ ، ٤١٥ ، ٤٢٠

بوجدانه وثار في ذهنه ، فيتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عمّا حوله ، ولكنه لا يغفل مواطن الجمال ، ولا يغفل ذكرياته وشوقه إلى بناته ، ثم يصوغ ذلك في أسلوب أدبيٍّ رفيع ، وفي الشكل المعهود للرسائل .

قال في رسالته إلى علية :

« يا بنيتي الحبيبة ،

ها أنذا على شاطئ البحر قد انتبذت مكانًا قصيًّا ، وفررت من الناس لأظفر بنفسي . وأمواج « مرمرة » توسوس بنشيد المساء بين يديَّ ، وقد توارت الشمس بحجابها . وذات اليسار جزر الأمراء جاثمة على الأمواج ، وذات اليمين تلوح من خلال الأشجار « مودا » الجميلة لألاءة تُطِلّ في مرآة من خليجها ، وعلى بعد تلوح الآستانة الجليلة تنازع مناراتها الظلام عن نفسها . وعلى مقربة منّي منارة « فنار » تضيء وتخبو لترشد السائرين على الماء كأنها بصيص من الأمل خفّاق يلوح للسائرين في بحر الحياة ... » وختمها قائلاً : « ها أنذا ألقي القلم فسلام عليك .»

وقال في رسالته إلى بثينة : « أحدثك عن رحلتي راجيًا ألا تكلفيني ترتيب الحديث على ترتيب المشاهد ، فإنما هي فرص تنتهز ؛ فسأبدأ بالحديث عن سويسرة قبل الحديث عمّا رأيت في الطريق إليها .»

وأخيراً نصل إلى الشكل الجديد باسم فنِّ الرحلة – بعد أن نكون قد استبعدنا منه الكتب التي قلنا منذ أمد : إنها تندرج تحت العلم أكثر ممّا تندرج تحت الأدب ، ويستحقُّ منا هذا الشكل وقفة أطول من الأشكال السابقة .

يغلب على الرحلات الشعرية – ما عدا الشعر التعليميّ – والأشكال السابقة من الرحلات النثرية : القِصَر ؛ فرسالة ابن فضلان – مع حواشيها المطوّلة – لا تزيد عن مئة صفحة ، وتتفاوت رسائل الدكتور عبد الوهاب عزام بين الصفحتين والتسع .

أما الرحلة بالمعنى الدقيق فتتفاوت تفاوتاً بعيد المدى ، فقد شغلت رحلة أحمد بن حسن المتيويّ من فاس إلى تفيللت ورقتين اثنتين [١] . وقال خليل بن شاهين الظاهري : « إنني صنفت كتاباً ، وسمّيته « كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ويشتمل على مجلدين ضخمين ، يشتملان على أربعين باباً ، جملة ذلك ستون كراساً في قطع الكامل ، معتمداً في ذلك ما شاهده العيان ، أو تحققته من نقل الثقات الأعيان ، الذينُ يركن إليهم غاية الإركان ، اطلعت عليه من كتب المتقدّمين ، وما وجدته منقولاً عن المشايخ المعتبرين .» [٢] ورجّح كراتشكوفسكي أن « ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة » لمحمد بن رشيد الفهريّ كان في عدة أجزاء .[٣] وتحوي الطبعة التي أرجع إليها من رحلة ابن بطوطة قريباً من ٧٠٠ صفحة .

لا نستطيع إذاً أن ندّعي للرحلة حجماً معيّناً ، وبخاصة في العصر الحديث ، الذي شارك فيه الصحافيّون ، وقاموا بالرحلات من أجل كتابة المقال الواحد أو المقالات المتوالية في الأحداث التي واجهوها ، والظواهر التي رصدوها .

عناصر الرّحلة النثريّة :

وتفتتح أغلب الرّحلات بمقدمة ، ولكن عدداً لا بأس به أهملها وتلافى بعض من أهملها الأمر بإيراد بعض ما تورده المقدمات في أوّل حديث الرحلة .

وهناك عناصر تكاد لا تغفلها واحدة من المقدمات ، وأهمها العناصر الدينيّة التي يتبرك بها المسلمون عادة ، وعلى رأسها التحميد ، يليه على شيء من البعد الصلاة على النبيّ ﷺ ، وعلى بعد بعيد التشهد . واختصر بعضهم فاقتصر على عبارة واحدة . قال عبد الرحمن بك سامي : « الحمد لله قبل كل شيء »[٤]، واقتصر بعضهم على عبارات ، مثل عبد الله حمد الحقيل الذي قال : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ٨٤٦ (٢) زبدة كشف الممالك ، ص ٨٤٦
(٣) تاريخ الأدب الجغرافي ، ص ١١٤ (٤) القول الحق ، ص ٥

أعمالنا ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ .»[١]

وأطال بعضهم مثل الشنقيطيّ ، والأنصاريّ الجزيريّ ، واللواء إبراهيم رفعت باشا الذي قال : « الحمد لله على ما هدى إليه من شعائر الدين ، وسنّه من شرائع لإحياء العالمين ، ومناسك يصمد [يقصد] إليها الدانون والقاصُون ، ويتداعى إليها الموحّدون . نحمده على بيت جعله مَثابة للناس وأمْنا ، وملاذاً للإسلام وحصناً حييت به الأمة العربية ، وذاع صيتها في الأقطار العجميّة ، وطهرت به النفوس من أوزارها ، وضرعت فيه إلى ربها ؛ فأفاض عليها من الهدايات الروحيّة ، والكمالات الخلقيّة ، والمنافع الدنيويّة والأخرويّة ، ما لا يدخل تحت الضبط ، ولا يحصره العدُّ .

« والصلاة والسلام على هادي الأمم من غوايتها ، ومنقذها من ضلالتها ، والآخذ بها عن اللَّمَم [الذنوب الصغيرة] إلى السبيل الأمم [الوسط] محمد بن عبد الله ، مطهِّر البيت من الأوثان ، والناشر على ربوعه راية السلام ، الذي وحَّد بين المسلمين في المنْسَك ، وسَنّ لهم سنة التعارف على اختلاف أجناسهم ، وتباين لغاتهم ، وتباعد أقطارهم . فكانت بذلك وحدة لا تنفصم العُرا ، وألْفة لا يدركها البلى ، ما دام المسلمون بما هداهم إليه متمسكين ، وبحبل الله معتصمين ، وبسنّة رسوله مؤتسين ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا سبيله ، وارتسموا طريقه .»[٢]

ويماثل العناصر الدينيّة في الكثرة الحديث عن الظروف التي قام الرحّالة فيها برحلته ، ودوّنها فيها ، والعوامل التي دفعته إلى هذا وذاك ، مما أبنته في أول هذا الكتاب .

كذلك كثر الحديث فيها عن الأمور التي اعتنى بها الرحّالة ، وقصد إلى وصفها . قال التجانيُّ : « فهذا تقييد يشتمل على وصف ما شاهدته في هذه

(١) رحلات وذكريات ، ص ١٥ (٢) مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٢

ومسافاتها ، والإشارة إلى مفتتحيها وبُناتها ، وأحوال من اشتملت عليه من أصناف العوالم ، وما يتميز به كل بلد من الآثار والمعالم ، وما يتشوّف إليه ويتشوّق إلى الاطلاع عليه .»[١]

ويماثله الحديث عن المنهج الذي سلكه في تدوين الرحلة. قال إدوار بك إلياس : « فلما انتهيت من البحث وجمع المواد ، سطّرت فصول هذا الكتاب وجعلت الاختصار شأني في أمور الانتقال والحكايات الخاصّة ، فما أطلت إلا حيث يفيد التطويل ، في وصف أخلاق الأمم ، ونظامات الممالك المميِّزة للشعوب ، وصدّرت كل فصل من فصوله بخلاصة تاريخية تَلْزم للقارئ ، حتى يقابل بها ماضي الأمم بحاضرها ، ويكون على بيّنة من أمر القصور والتحف والآثار التي تكثر الإشارة عند وصفها إلى حوادث التاريخ الماضية . وزيّنت صفحات الكتاب برسوم الملوك والكبراء وبعض المشاهد المعدودة ، فكان في ذلك كله بعض مزيّة له يكون من ورائها النفع ، إن شاء الله .»[٢] وكشف بعضهم عن الأبواب التي قُسّم إليها الكتاب مثل الأنصاريّ الجزيريّ والعطيفيّ .

واشتملت المقدمات على حديث عن تاريخ الرحلات وتدوينها وتسميتها . قال ابن جبير : « اللهم صلّ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، ابتُدئ بتقييدها يوم الجمعة الموفي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمس مئة ، على مَتْن البحر ، بمقابلة جبل شُلَيْر ، عرّفنا الله السلامة بَمنِّه .»[٣]

واشتملت على بيان برفقة السفر . قال النابلسيُّ مجملاً : « كان ذهابنا إلى ذلك مع جماعة كرام ، ذوي شهامة واحتشام ، من أهالي دمشق الشام ، حرسها الله – تعالى – على مدى الأيام .»[٤] وقال ابن فضلان : « وكان

(١) رحلة التجاني ، ص ٣ (٢) مشاهد أوربا وأميركا ، ص ١ (٣) رحلته ص ٧ (٤) حلة الذهب الإبريز ، ص ٥٦

السفير له نذير الحرميّ ، فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه ، وتسليم ما أهدي إليه ... وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجلاً يقال له عبد الله ابن باشتو الخزريّ ، والرسول من جهة السلطان سوسن الرسّي مولى نذير الحرميّ ، وتكين التركيّ ، وبارس الصقلابيّ ، وأنا معهم ، على ما ذكرت .»[1]

ومن الطبيعيّ أن ينفرد كل واحد – أو عدد قليل – من الرحّالة بأشياء لا تتردّد في بقية الرحلات ، فانفرد النابلسيُّ بالثناء على البلد الذي ينوي زيارته ، ونور الله محمد بن الطيب المدنيّ الشراغيّ الفاسيّ (١١١٠–١١٧٠هـ/ ١٦٩٨–١٧٥٦م) بمقدمة منسقة تحدّث فيها عن أهميّة الحجّ إلى مكة ، وزيارة قبر الرسول ﷺ بالمدينة ، وفوائد الأسفار ، وما يقع على المسافر من التزامات وأعباء . وتحدث فؤاد حمزة عمّا استعد به للرحلة ، كما فعل محمد علي باشا ، وأضاف إلى ذلك كلمة عن بعض قبائل المنطقة ، وعما تفضّل الخديوي به ليهوّن عليه السفر . وتحدّث عبد الله حمد الحقيل عن صعوبة الرحلات في العصور الغابرة ، وما اضطرّ القدماء إلى تجشمه ، وما فعلته وسائل المواصلات الحديثة من تيسير ، وفائدة الرحلات ، ومخاطرها ، وقلّة من يحسنون الكتابة عنها .

ومهما يكن من شيء فالمسائل الفردية لا تنقضي ؛ لأن لكل رحلة ظروفها، ولكل رحّالة شخصيته ، وإنما قدمت منها نماذج فقط .

ثم تبدأ الرحلة أو قوام الرحلة . ولعلّ أوّل ما يرد على أذهاننا سؤال عمّا يصوّره الرحّالة ، والجواب البسيط السريع : ما يلفت نظره . ولكن هذا الجواب يثير سؤالاً آخر : وما الذي يلفت نظره ؟ وهنا تختلف الإجابات ؛ فيجيب دارس نظري للرحلات بأنها الأخبار السطحيّة ، والأخبار الطريفة والعادات الشاذّة .[2] ويجيب رحّالة مثل الهرويّ : « ذكرت ماشاع خبره ، وذاع ذكره بطريق الاستفاضة ، والله أعلم بصحته.»[3] وقد يجيب قارئ « الإفادة والاعتبار » لعبد

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ٦٨ (٢) زكي محمد حسن ، ص ٣٨ ، ٤٣ (٣) حلة الذهب الإبريز ٦٨

اللطيف البغداديّ ، فيراه اعتنى بما جلبته المجاعة في مصر من أحداث مُفْزعة ، ومولد طفل برأسين ، وآخر أبيض الشعر ، وخروج اللبن من ضرع سخلة كأنه خيط دقيق[١] – يجيب بأنها الأخبار الغريبة غير المألوفة . وفي اعتقادي أن ما يلفت نظر الرحّالة متعلّق بشخصه ، ولذلك تتنوّع الإجابات بتنوُّع الميول والاتجاهات والاختصاصات التي لا تنتهي عند حدٍّ معيّن .

ويمكن أن نُصنّف ما اهتمّ به الرحّالة العربيُّ من أمور التصنيف التالي على الرغم من تداخل عناصره بعض التداخل :

١– ما يتّصل بالرحلة ذاتها .

٢– الأمور الجغرافيّة .

٣– الأمور الاجتماعيّة .

٤– الأمور الثقافيّة .

٥– الأمور الاقتصاديّة .

١– ما يتصل بالرحلة ذاتها :

أوّل الأمور المتّصلة بالرحلة الاستعداد للشروع فيها . وقد غني بعض الرحالة عن هذا الاستعداد لأن الحكام الذين يعيشون في كنفهم أغنوهم عن ذلك ، إمّا لأنهم هم الذين بعثوا بهم في مُهمّات رسميّة ، أو لأن الرحّالة كانوا مرافقين للحكام ، مثل التجانيّ وابن بطوطة في بعض رحلاته .[٢]

وكان من أوّل ما اهتموا به الأدلاء ، ولم يستخدموا دليلاً واحداً بل استخدموا عدّة ، فكان فؤاد حمزة يصطحب من كل منطقة يمّمها دليلاً خبيراً بها .[٣] ولما عزم ابن فضلان على استئناف رحلته اكترى من أهل مدينة الجرجانيّة التي توقّف بها دليلاً .[٤] واعتاد الحكّام أن يقدّموا للرحّالة المشهورين الدليل الواحد أو الأدلاء المتعدّدين الذين بلغ بهم ملك الخزر خمسة ، قدّمهم

(١) ص ٧٥ (٢) ص ٥٣٠ (٣) في بلاد عسير ، ص ١٣ (٤) رسالة ابن فضلان ، ٨٨

لسلام الترجمان .[١] وكانت قبيلة مسّوفة في إفريقيا تُسمّي الدليل من أبنائها : التكشيف . وكان الرحّالة يستأجرونه من أماكن بعيدة ، ويرسلونه إلى إيولاتن بكتب منهم إلى أصحابهم بها ، ليكتروا لهم الدور ، ويخرجوا بالماء مسيرة أربع ليال للقائهم .[٢] ولم يكتف الأدلاء بهداية المسافرين في الطريق ، بل قدّموا لهم المعلومات عنها . قال فؤاد حمزة يصوّر دليل رحلته : « كان رفيقنا هذا اليوم رجلاً من أهل الضُّرم خبيراً بالأرض ، عارفًا بأسماء الجبال والأودية ، فلم يترك شاردة ولا واردة . وقد ذكر لنا طرفًا من قصص أهل هذه البلاد ، منها ما هو من قصص الزير وأبي زيد الهلاليّ والسلطان حسن ، ومنها ما هو مقتبس ومنسوب إلى رجال معاصرين ... وقصّ علينا دليلنا طريقة صيد البدو للظباء . قاله : « إن البدويّ الماهر يأتي الظبي من الجهة المضادة لمهب الريح ، حتى لا يشعر الحيوان بريحه ، فيستنكرها ويفرُّ منه ، فإذا تلفّت الظبي إلى ورائه ليشاهد: هل هناك من يطارده وقف البدويُّ في مكانه كأنه جماد مستقر ، فيطمئن الظبي ويشرع في الرعي فيتقدّم الصيّاد البدويُّ إذ ذاك مسافة أخرى ، فإن انتبه له الظبي توقّف كأنه جماد لا يتحرك ، وهكذا دواليك حتى يصبح على مسافة رمية منه ، فيرميه ببندقيته . والبدويُّ مقتصد محتاط لا يسرف في إطلاق الرصاص على طريدته .»[٣] إلى جانب ذلك كان الدليل مثل بقيّة رفاق السفر أحيانًا موضع السمر والتفكُّه . قال النابلسيُّ : « وكان في صحبتنا رجل يسمّى بركات ، وهو دليل لنا على الطريق في هاتيك الدرجات والدركات ، فقلنا نشير إلى ما في اسمه من التورية اللطيفة ، والنكتة المنيفة :

قد مشينا إلى البقاع صباحًا ... واهتدينا ، وتّمت الحاجاتُ

كيف لا نهتدي إلى كل خير ... ومن الله عندنا بركات [٤]؟

وعُنوا بإعداد ما يحتاجون إليه من ركائب ، وزاد ، وماء وبنزين للسيارة في العصر الحديث ، وغيرها مما يهوّن قطع الطريق . كذلك عُنوا بإعداد الهدايا

(١) زكي محمد حسن ، ص ١٦ (٢) ابن بطوطة ، ص ٦٧٥ (٣) في بلاد عسير ، ص ٥٢
(٤) حلة الذهب الإبريز ، ص ٩٦

التي يقدّمونها إلى الحكام والكبراء ، والسلع التي يبيعونها للإنفاق على رحلاتهم . وحرصوا منذ مبدأ رحلتهم ، وفي كل بلد نزلوه ، أن يأخذوا من صاحبه الخطابات التي توصي بهم وبتهوين السفر عليهم . كما حرصوا مسبّقًا على ضمان الإقامة ، فاكتروا الدور ، وحجزوا الغرف في الفنادق ، واستعدّ من عزم على السفر إلى بلد بارد بالملابس المناسبة له . قال ابن فضلان : « وأمرنا من كنّا نأنس به من أهل البلد بالاستظهار في الثياب والاستكثار منها ، وهوّلوا علينا الأمر وعظّموا القصة ، فلما شاهدنا ذلك كان أضعاف ما وُصِف لنا ؛ فكان كل رجل منّا عليه قُرْطَق ، وفوقه خفتان ، وفوقه بوستين ، و فوقه لبّادة وبرنس لا تبدو منه إلا عيناه ، وسراويل طاق ، وآخر مبطّن ، وران ، وخُفّ كِيمَخْت ، وفوق الخفّ آخر . فكان الواحد منا إذا ركب الجمل لم يَقْدِر أن يتحرك لما عليه من الثياب .»[(١)]

وأخيراً كان من الواجب الحصول على إذن بالخروج أو الدخول . قال ابن بطوطة : « ومن منازلها قَطْيا المشهورة ... وبها تؤخذ الزكاة من التجار ، وتفتّش أمتعتهم ، ويبحث عمّا لديهم أشدّ البحث . وفيها الدواوين والعمّال والكتّاب والشهود . ومَجْباها في كل يوم ألف دينار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام .»[(٢)] وقال : « ثم سرنا من كارْسَخو ، فوصلنا إلى نهر صَنْصَرَة – وهو على نحو عشرة أميال من مالي ، وعادتهم أن يُمنَع الناس من دخولها إلا بإذن . وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان ... ليكتروا لي داراً ، فلما وصلت إلى النهر المذكور جزت في المعديّة ، ولم يمنعني أحد .»[(٣)]

ويبدأ السفر ، و يمكن أن نتبيّن في الرحلات الأنواع التالية :

---

(١) ص ٨٦ ؛ الاستظهار : الاحتياط . قرطق : قميص أو معطف قصير يصل إلى منتصف الجسم . خفتان : صدرية تحت الثياب . برنس : معطف طويل له قلنسوة تلتصق به وتغطي الرأس . ران : نوع من الأحذية . كيمخت : نوع من الجلد .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٥٤

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٨١

١- الرحلات داخل القطر الواحد أو ما كان كذلك وقت الرحلة ، مثل رحلة التجانيّ في تونس ، ورحلة إلياس الغضبان الحلبي بين حلب والقدس ، ورحلة خليل الصبّاغ بين القاهرة وطورسينا ، ورحلة أحمد بن حسن المتيويّ بين فاس وتفيللت ، ورحلة محمد الكبير في الجنوب الصحراويّ الجزائريّ .

٢- الرّحلات داخل العالم الإسلاميّ ، وهي - بطبيعة الحال أغلب الرّحلات ، ولكنني أشير إلى أن منها ما كان بين قطرين متجاورين ، مثل رحلة ابن سليم الأسوانيّ إلى النوبة المسمّاة « أخبار النوبة والمُقُرّة وعلْوة والبجة والنيل » ، ومنها ما تباعد طرفاه حتى شملا العالم الإسلاميّ كلّه على وجه التقريب .

٣- الرّحلات الخارجيّة ، أعني التي تبدأ من العالم الإسلاميّ وتنتهي في دولة غير إسلامية ، وهي كثيرة ومتنوّعة . فقد بدأت بالرحلات بين مدينة إسلاميّة والقسطنطينية قبل أن يستولي عليها العثمانيوّن ، مثل : رحلة عبادة بن الصامت ، والأسري ومحمد بن موسى الخوارزميّ . ثم بدأت الرّحلات البريّة والبحريّة إلى الشرق الأقصى ، مثل : رحلة أبي عبيدة عبد الله بن القاسم العمانيّ ، والنضر بن ميمون الإباضيّ البصريّ ، ومحمد بن إسحاق ، والتاجر سليمان ، وابن وهب القرشيّ ، وغيرهم إلى الصين أو الهند أو كليهما . ثم وجدت الرحلات إلى الأقطار الشمالية ، مثل : رحلة هارون بن يحيى وابن فضلان والطرطوشيّ إلى بلاد الصقالبة ، ويحيى بن الحكم البكريّ إلى جتلاند. وفي العصور المتأخرة والحديثة ازدهرت الرحلات إلى جميع أنحاء أوربا والأمريكتين وأستراليا .

٤- الرحلات البحرية في بحر الظلمات (المحيط الأطلسيّ) ، وتتمثّل في رحلات خشخاش ، والفتية المغررين ، ومحمد بن قو سلطان مالي .

وختام القول في مجال الرحلات : إن ابن بطوطة وإلياس بن حنا الموصليّ

كانا – في العصور القديمة – أوسع الرحّالة رحلة ، وأوفرهم نشاطاً .

و وصف الرحّالة الطرق التي سلكوها في رحلاتهم ، بدءاً من مركز الابتداء إلى محط الانتهاء ، فكان منهم من اقتصر على ذكر المنازل المختلفة في الطريق ، والمسافة بين كل منزلتين متعاقبتين ، وحال المياه الموجودة في هذه المنازل لشدّة الحاجة إليها ، أو فعل ذلك في بعض مراحل رحلته ، على حين أطال بل استطرد إلى أشياء أخرى في غيرها .

وعنوا بالحديث عن رفاق السفر ، فقد كان منهم من رافق الأمير ، مثل : التجانيّ وابن هطال ، ومنهم من سافر مع أفراد قليلين ، مثل : ابن فضلان ، ومنهم من سافر في جماعة تشبه القافلة أو في قوافل فعليّة . وكان منهم من كاد ينسى زميله أو زملاءه في السفر مثل ابن جبير ، ومنهم من أكثر الإشارة إليه .

كذلك عُنوا بالحديث عن وسيلة السفر ، وقد تعدّدت وسائل السفر عندهم لتعدُّد الأقطار التي زاروها واختلاف طبيعتها ؛ فقد ركب معظمهم الجمال العربيّة ، وركب ابن فضلان الجمال التركيّة ، وركب بعض رفاق النابلسيّ الخيل ، وركب بعضهم المراكب الصغيرة مثل الجلبات عند ابن جبير ، وبعضهم السفن الكبيرة مثل تلك التي ركبها ابن جبير في البحر المتوسط ، وابن بطوطة في الطريق إلى الصين ، وما ركبه – ويركبه – أبناء العصور الحديثة . وأخيراً استفادوا من المخترعات الحديثة ، فركبوا السيّارات ثم الطائرات .

والحقُّ ان حديثهم عن وسائل الانتقال من أطرف الحديث ، ويستحق كله التسجيل أو الاطلاع . ومن أطرف ماصوّروه وسائل الانتقال في الأصقاع الباردة ، مثل : السُّفَر التي تتخذ من جلود الجمال لعبور الأنهار المتجمّدة أو شبه المتجمّدة . قال ابن فضلان : « ورحلنا حتى صرنا إلى نهر يغندي ، فأخرج

الناس سفرهم ، وهي من جلود الجمال فبسطوها ، وأخذوا بالأثاث من الجمال التركيّة لأنها مدوّرة فجعلوها في جوفها ، حتى تمتدّ ، ثم حشوها بالثياب والمتاع ، فإذا امتلأت جلس في كل سفرة جماعة من خمسة وستة وأربعة ، وأقل وأكثر ويأخذون بأيديهم خشب الخدنك [الحور الأبيض] فيجعلونه كالمجاديف ، ولا يزالون يجدفون ، والماء يحملها وهي تدور حتى نعبر .»[1]

وقال أبو حامد الغرناطيّ يصف طريقه إلى يورا على بحر الظلمات: « الطريق إليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً ، ويتّخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها طول كل لوح باع ، وعرضه شبر . مقدّم ذلك اللوح ومؤخّره مرتفعان عن الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله . وفيه ثقب قد شدّوا فيه سيوراً من جلود قويّة يشدّونها على أرجلهم ، ويقرن [الرجل] بين اللوحين اللذين يكونان في رجليه بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل . وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوّة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة ، ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة . ولولا تلك الحيلة لا يمكن لأحد أن يمشي هناك ألبتّة ؛ لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد ، وأي حيوان يمشي عليه يغوص فيه فيموت ، إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب ، فإنها تمشي عليه بخفّة وسرعة .»[2] وقد صار هذا إحدى الرياضات الشائعة في البلاد الباردة ، وتسمّى التزلّج skating .

وانظر وصف ابن جبير للجلبات في عيذاب على البحر الأحمر ، وركوب ابن بطوطة للعربة في القرم عند زيارته للسلطان محمد أوزبك ، وركوب عبد الوهاب عزّام للطائرة للمرّة الأولى – تجد ما يستحقّ القراءة .

وأخيراً صارت السيارة واحداً من أبطال رحلة « خمسة في سيارة » لسامي

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ٨٠ ، ٨٦ ، ١٠٤ (٢) المرجع السابق ، ص ٥٢

الجريديني .

وأفاض الرحّالة في وصف المصاعب والأخطار التي واجهوها في أسفارهم . ولا تكاد توجد رحلة بحرية لم تقابلها عاصفة أو أكثر ، أسهب الكاتب في تصويرها ، وتصوير الهلع الذي أصاب الناس بسببها ، وإحساسهم باقتراب الموت غرقاً منهم ، وتقرُّبهم إلى الله بالصلاة والدعاء . ولم تخلُ الرحلات البريّة من المخاطر ، غير أن معظمها من قطّاع الطرق والقبائل الشرسة و ما أشبه ذلك . قال الدكتور سامي الدهّان يصف ما واجهه ابن فضلان : « فاستغرقت رحلته أحد عشر شهراً في الذهاب ، لاقى خلالها مصاعب كثيرة ، وأهوالاً مذهلة ، وصفها ابن فضلان وصفاً جميلاً بارعاً ، يضعه في الصف الأوّل من الرحّالة الأدباء . فقد ذكر أنه تنكر في القافلة قبيل نيسابور خوفاً على نفسه ، ثم دهمه الشتاء في الجرجانية على نهر جيحون ، فإذا باب من الزمهرير قد فُتح ، وإذا الريح عاصف شديدة . فإذا خرج من الحمّام إلى البيت جمدت لحيته ، فأصبحت قطعة واحدة من الثلج ، وإذا هو يبيت في بيت داخل بيت ، ويتدثّر بالأكسية والفراء ، ومع ذلك يلتصق خدُّه على المخدّة لشدّة البرد ... ولقيه واحد من قطّاع الطرق ، فأوقف القافلة بأسرها ، وهي نحو ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل ، فنجا منه بالهدية والحسنى .»

٢ – الأمور الجغرافيّة :

صوّر الرحّالة العرب كل أنواع الطبيعة التي مرّوا بها ، تصويراً يتفاوت إجمالاً وإسهاباً ، ونستطيع أن نتبيّن أمرين دفعاهم إلى هذا التناول : الرغبة العلميّة والحسُّ الجماليُّ . فقد اهتمَّ أكثر الرحّالة بإبانة الطرق التي سلكوها ، والمنازل التي وقفوا بها ، وما صادفهم فيها من عوائق وميسّرات . غلا بعضهم في ذلك ، فجاء حديثهم أخباراً علميّة جافة ، تحت اسم « المسالك والممالك » ، ولكن بعض الرحّالة تمتّعوا بذوق نافذ ، ففطنوا إلى مواطن

الجمال في أسفارهم و وقفوا عندها يتأمّلون ويتمتّعون ، وتركوا لنا لوحات بارعة تصوّر المنظر الجميل ، والحسّ النبيل . يتمثّل ذلك في المقدمات التي أتى فيها ابن جبير بثناء عامّ على بعض المدن والمواقع مثل حلب وصقلية ، وتأنق فيها ، حتى أعجب بها كثيرون ممن أتوْا بعده ، واقتطفوها برمتها أو أجزاء منها في كتبهم . ولكن هذا الإحساس بالجمال ينتشر عند المتأخرين والمحدثين ، من أمثال النابلسيّ والعطيفيّ وعبد الرحمن بك سامي و سامي الجريدينيّ أكثر مما كان عند القدماء .

ومهما يكن من شيء ، فإننا نجد هؤلاء الرحّالة تناولوا البحار والقفار ، والصحارى والأراضي الخصبة ، والجزر والجبال ، والأودية ، والهضاب ، والأبارق ، والمياه ، والمدن والقرى . ومن الطبيعيّ أن تتفاوت قدراتهم على الملاحظة والوصف ، وتختلف ميولهم ، فيوجد في حديث أحدهم ما لا يوجد عند الآخر ، ولكننا إذا جمعنا ما تحدّثوا به ، وأهملنا هذا التفاوت ، وجدناهم يتناولون ما يلي :

اهتمّ كثيرون بتقديم كلمة يثنون فيها على الموقع الذي يتحدثون عنه أو يذمّونه ، كما نجد عند ابن بطوطة و التجانيّ إلى جانب ما ذكرته عند ابن جبير .

حاول التجانيّ وبعضهم أن يفسّر تسمية بعض الأماكن ويعلّلها .

عُني أكثرهم بتصوير طبيعة الأرض التي يتحدثون عنها ، وأفاض في ذلك فؤاد حمزة ، كذلك عُنوا بتحديد موقع الأماكن التي زاروها ، ومساحتها ، ومياهها ، وثرواتها ، ومناخها ، وسكانها .

ويمكن إجمال ما عُنوا بوصفه في المدن بخاصة – فيما قلته في حديث سابق لي عن رحلة ابن جبير في ثلاث نواح : « المرافق ، والمشاهد ، والأرباض. وتضمُّ المرافق في خلده : الأسوار ، والحصون ، والمساجد ، والمدارس ،

والحمّامات ، والمياه ، والأسواق ، والمستشفيات (المارستانات) ، والمنازل ، والشوارع ، والأبواب . وتضمُّ المشاهد : المقابر ، والموالد ، وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الإسلامية ، والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية . وتضم الأرباض : الأحياء والضواحي .»

ومن أهم ماعُني به الرحّالة المياه لشدة الحاجة إليها في بعض المواضع ، سواء كانت هذه المياه : آباراً ، أو أحساء ، أو غدراناً ، أو عيوناً ، أو بركاً ، أو أنهاراً . والتزموا أن يصفوا بدقة طعم هذا الماء ، على اختلاف مذاقاته . وأرّخ بعضهم مثل التجانيّ لبعض الآبار . ومن الطبيعيّ أن تحصل الأنهار الكبرى – مثل النيل – على حيّز كبير من انتباههم ، بل بلغ أمر النيل عند عبد اللطيف البغداديّ أن خصّص له الفصل الأوّل من المقالة الثانية من رحلته ، تحدّث فيه عن النيل والفيضان وقوانينه والطمي حديثاً مستفيضاً .

كذلك التفتوا إلى عدّة ظواهر مناخية : فبيّنوا درجات الحرارة ، وبخاصة في المناطق الباردة ، كما فعل ابن فضلان وأبو حامد الغرناطيّ ، وفطنوا إلى حب الناس في تلك المناطق للتدفئة وللنار ، حتى عشقوا منظرها في غير الأيام الباردة ، وصوّروا آثار البرد في الشوارع والملابس والأغطية والنباتات ، وتحدّثوا عن الرياح المعتدلة والهوج والمتقلبة والزوابع والصواعق ، وأوقات المطر . والتفت بعضهم مثل عبد اللطيف البغداديّ للأثر الصحيّ للمناخات المختلفة . واعتمد أحمد محمد حسنين وفؤاد حمزة على الرصد بالأجهزة ، أما التجانيّ فأفاض في الحديث عن سهيل : أين يطلع ، وشكله ، وما يقرب منه من كواكب ، ثم أتى ببعض الأقوال الشعبيّة التي كانت رائجة عند العرب عنه ، وحيرهم طوال الليل والنهار قريباً من المناطق القطبية .

وعُنوا بالثروات الطّبيعية في كل منطقة زاروها . ولما كان علم النبات من العلوم المزدهرة عند العرب ، وكان التبحّر فيه والابتكار والإضافة العلمية ، أموراً تقتضي السياحة في الأقطار المتعدّدة ، فقد لبّى علماء النبات هذه الحاجات .

وعُني الرحّالة من غير علماء النباتات بها ، فأبانوا لنا الغابات ومواقعها وسعتها . وعدّدوا في كل منطقة تحدّثوا عنها ما تخرج من نباتات ، وذكر بعضهم كل ما تنبت ، واقتصر بعضهم الآخر على الفائق منه لكبره أو حلاوته أو لإثماره في غير المواعيد المعروفة في مواطن الرحّالة . وبلغ بهم الأمر أن صار الحديث عن النباتات والثمار بخاصة أحد عناصر المقدّمات التي تثني على المواقع ، وأنْ خصّص عبد اللطيف البغداديّ الفصل الثاني من المقالة الأولى لما تختصُّ به مصر من نباتات ، أفاض فيه ما شاء .

ويمكن أن نقول عن الثروة الحيوانية ما قلناه عن الثروة النباتية ، فقد عُني الرحّالة بسرد الحيوانات التي تعيش في كل منطقة تحدّثوا عنها ، ولفت أنظارهم ما رأوْه أول مرة منها ، مثل الكركدن الذي رآه ابن بطوطة في السند ، أو الغريب منها مثل سمك الوال الذي رآه سلمان التاجر ، وعجائب الحيوانات البحرية والطيور الكاسرة التي تحدث عنها ، والبقر الوحشيّة والسمكة التي تحتوي أذنها على فتاة عند أبي حامد الغرناطيّ ، أو كثرة الحيوانات المعتادة مثل القرود التي رآها ابن بطوطة في سيلان ، أو ظاهرة لم يعتدها الرحّالة في بلده ، مثل التبرك بعواء الكلب عند الصقالبة الذي عرفه ابن فضلان ، وكثرة استخدام الحمير في الركوب في مصر ، كما روى ابن سعيد . وأخيراً فعل عبد اللطيف البغداديّ مع الحيوان ما فعله مع النبات ، فخصّص الفصل الثالث من المقالة الأولى من رحلته للحيوانات المصرية ، ومن أطرف ما تحدّث عنه التفريخ الصناعيُّ .

ولم يهملوا الثروة المعدنية وإن كان حديثهم عنها أقل كثيراً من حديثهم عن الثروتين السابقتين . والغريب أن أوائل الرحّالة كانوا أكثر عناية بها ، مثل سليمان التاجر الذي تحدّث عن مناجم الذهب ، والجواهر ، ومغاصات اللؤلؤ .

ولكن الأمر اللافت للنّظر حقًّا ما فعله أبو دلف في رسالته الثانية ، فإن كثرة حديثه عن المعادن المختلفة تكاد تجعل رحلته دليلاً لهذه المعادن

ومواطنها .

٣- الأمور الاجتماعيّة :

عُني الرحّالة العرب بالأمور الاجتماعيّة عناية شديدة ، فاقت عنايتهم بالأمور الأخرى ، وأكسبت رحلاتهم أهمية كبيرة ، إذ جعلتها مصدراً لا يستغنى عنه للمؤرخين وعلماء الاجتماع .

ولنبدأ بالحديث عن البشر الذين وجدوهم في المناطق التي قصدوا إليها . فقد تحدّثوا عن أصولهم ، فدأب فؤاد حمزة على سرد أسماء القبائل التي تسكن كل منطقة تحدّث عنها ، وأنسابها . ودأب التجانيّ على نسبة السكان في مواقع تونس إلى العرب أو البربر أو بقايا الرومان . ونجد شيئاً من ذلك عند ابن بطوطة والعبدريّ ، بل تبيّن أولهما أن كثيراً من أهل (كافا) بجزيرة القرم قَدِموا من (جنوة) من مدن إيطاليا . وبلغ الأمر بعبد الرحمن بك سامي أن جعل واحداً من فصوله القصيرة لأهل دمشق وأخلاقهم .

وصوّر لنا ابن فضلان وأبو حامد الغرناطيّ وبزرك وراوي رحلة الفتية المغررين هيئة السكان في أجسادهم ، وألوان وجوههم وعيونهم وشعرهم . وكان ابن بطوطة سريع الانتباه إلى جمال النساء في كل بقعة حلّ بها . وانتبه عبد اللطيف البغداديّ إلى آثار مناخ مصر على الإنسان المصريّ في مراحل عمره المتوالية . وخصّص عبد الرحمن بك سامي واحداً من فصوله للجَمال في دمشق .

ولم يقصر الرحّالة العرب اهتمامهم على فئة أو طبقة من المجتمع الذي وصفوه ، بل تحدّثوا عن الجميع : فعقد عبد الرحمن بك سامي فصولاً مستقلة لكل من مدارس بيروت وجمعياتها ، والهيئة الاجتماعية في دمشق ، وطبقات الدماشقة من حيث ارتزاقهم ، ومجتمعات الدماشقة، وتحدث عرضاً عن طبقات الناس في بيروت . وامتدّ اهتمام ابن فضلان من الملوك إلى قُطّاع الطرق .

وصور عبد الباسط بن خليل الظاهريّ تعظيم الأشراف من سلالة النبيّ ﷺ في المغرب ، وسوء حالة المساجين في تونس . وعُني الوزير الوزّانيّ بالأرستقراطيّة الأسبانيّة .

وأعجب ابن بطوطة بالمنشآت الاجتماعية في الصين ، مثل المعبد الذي يحتوي على ملاجئ للعميان وذوي العاهات ، ومستشفى كبير ، وما ينفق على الأيتام والأرامل والشيوخ ، وإعفاء من بلغ الخمسين من العمّال من العمل ، وإنفاق الحكومة عليهم . كما أعجب بالأوقاف التي رصدها أهل دمشق لألوان الخير المختلفة ، وبنظام الفتوّة في الأناضول .

والتفتوا إلى لغات هذه الشعوب ، وانتمائها ، وصفائها ، أو اختلاطها ، وطريقة نطقهم بها ، حتى خصّص عبد الرحمن بك سامي واحداً من فصوله للغة الدماشقة .

وعُني ابن بطلان المسيحيّ بأوضاع المسيحيّين ، وموقفهم من البيزنطيّين ، وصنوه أقرام بعلاقة رهبان سينا بالبدو المسلمين الذين يعيشون حولهم . أما الرحّالة المسلمون فعُنوا بموقف شعوب البلاد التي زاروها من الغرباء بعامة ، ومن الغرباء من مواطنيهم بخاصة ، وبالعلاقة بين المسلمين المقيمين والمسلمين الوافدين ، والعلاقة بين المسلمين والحكام غير المسلمين الذين يعيشون في كنفهم .

ومهما يكن من شيء ، يمكن القول إن الرحّالة العرب وجّهوا القسط الأعظم من عنايتهم إلى طباع الشعوب وأخلاقها وعاداتها ، المعتاد منها وغير المعتاد ، في الأعياد والمواسم والاحتفالات والأفراح والأتراح وأوقات الفراغ والسلوك الدينيّ والشئون الشخصية . وركّز كثير منهم على تقاليد الزواج ، ووصل الأمر بعبد اللطيف البغداديّ أن خصّص الفصل السادس من المقالة الأولى من رحلته لغرائب أطعمة المصريين ، وخصّص عبد الرحمن بك سامي واحداً من فصوله لولائم الدماشقة ، وآخر لمقاهي دمشق ، وثالثاً لمتنزهاتها .

ونالت النّساء مايستحققن من عناية : فعقد عبد الرحمن بك سامي واحداً من فصوله لنساء بيروت . وبحث ابن بطوطة عن الجَمال في كل موطن نزل فيه ، وأشاد الفتية المغرّرون بجَمال النّساء في جزر المحيط الأطلسيّ ، والشدياق بجمال الإنجليزيّات . ونبّهوا على ارتفاع مكانتهن عند بعض الشعوب ، وعابوا عليها اختلاط الرجال بالنساء ، والعري المنتشر فيها . وتحدّثوا عن حريم بعض الحكام ، وما اعتادته النساء في الزواج ، وعند موت أزواجهن .

وكان من الطبيعيّ أن يُعنَوْا بالحياة الدّينيّة عند الشّعوب المختلفة ، فكشفوا عن أديانها وأربابها ومناسكها ، ومذاهب المسلمين وقدر التزامهم بالإسلام ، والظواهر الدّينيّة المختلفة . وطبيعيٌ أن رحلات الحجّ أفاضت في مناسكه ، أمّا من أطال المكوث بمكة مثل ابن جبير فلم يكتفِ بذلك ، بل وصف كذلك ما اعتاده أهلها من شعائر في المواسم المختلفة .

وعالجوا المواضع ، فاكتفوا بسرد أسمائها أحياناً ، وأطالوا في الحديث عن المدن والمواضع التي شهدت مواقع تاريخية . وأشاد كثير منهم بالمدن أو ذمّها في مقدمات عُنوا بأسلوبها ، وأتَوْا فيها بالإشارات العامة السريعة ، ثم تحدّثوا عن أحيائها وشوارعها ودورها والمنشآت العامة فيها . وذكروا من وِلد فيها أو نسب إليها من العلماء والأدباء والكبراء ، وترجموا لهم أحياناً ، وبخاصة في الرحلات العلمية .

وطبيعيٌ أن تأخذ العواصم أو الحواضر والموانئ أو المرافئ من العناية أكثر مما أخذت بقية المدن : أما المرافئ فأضافوا في الحديث عنها بيان أهميتها الملاحيّة والتجاريّة ، وأما الحواضر فأفاضوا فيها الحديث عن الحكام ، وأحوالهم ، وسياساتهم ، ورسومهم .

٤ – الأمور الثقافيّة :

اتخذ نوع واسع المجال من الرحلات من طلب العلم – كما رأينا آنفاً –

هدفًا له . وفعل فعله أغلب رحلات الحج ، ثم كثير من الرحلات الأخرى .

ومن ثمّ كان الرحّالة يدرسون أو يعرفون شيئًا عن الحالة العلميّة في البلاد التي يمّموها . ولكنهم أثبتوا ما وجدوه ، سواء كان ازدهارًا مثل الذي عثر عليه القلصاديّ في تلمسان وتونس ، والتمكروتيّ في إستنبول ؛ أو انحطاطًا مثل الذي وجده العبدريّ في قسنطينة ، وابن بطوطة في البصرة ، ورفاعة الطهطاويّ في فرنسا .

وعُنوا عناية شديدة بذكر العلماء والأدباء الذين نسبوا إلى المواطن التي زاروها أو عاشوا فيها ، وترجموا لبعضهم ، وحرصوا على الالتقاء بهم والأخذ عنهم ، بل حرص ابن بطوطة على زيارة قبور علماء بخارى .

وتحدّثوا عن المدارس ، وكثير منهم عن حلقات الدرس في الجوامع ، ومجالس الوعظ كما فعل ابن جبير في المدينة المنوّرة وبغداد .

وذكروا المكتبات الموجودة في هذه البلاد ، بل تعرّض قليل منهم لذكر المخطوطات أيضاً ، مثل التمكروتي الذي اجتذبت أنظاره كميّة المخطوطات المحفوظة في مكتبات إستنبول ، والمعروضة للبيع في أسواقها .

وانتهز بعضهم–مثل حجيج الواحديّ ، والعبدريّ ، والعياشيّ ، والشنقيطيّ– الفرصة المتاحة ، بل اختلق بعضهم الفرص ليعرض معارفه أمام الناس .

وبلغ الأمر بعبد الرحمن بك سامي أن جعل فصولاً مستقلة لكل من مدارس بيروت ، ومطابعها وصحفها ، وأطبائها ، وعلمائها المتوفين ، والمعارف في دمشق .

ويمكن القول إنه لا يوجد واحد من الرحّالة العرب أهمل إهمالاً تامًّا الحديث عن العمائر – من آثار و أبواب وأديرة وأسوار وأضرحة وبنوك (في العصر الحديث) وجسور وجوامع وحصون وحمامات وخوانق ودواوين ودور وفنادق وقباب وقصور وقلاع وقناطر وكنائس ومَبانٍ ومتاجر ومحارس ومدارس

ومساجد ومستشفيات ومشاهد ومقابر ومنارات ومنازل ونقوش – حقا أسهب بعضهم وأجمل آخرون ، ونال بعض العمائر مثل المسجد الحرام والمسجد النبويّ والمسجد الأقصى بالقدس والمسجد الأمويّ في دمشق ومسجد عمرو بن العاص في الفسطاط أكثر ممّا نال غيره ، ونالت الجوامع بعامة أكثر مما نالت بقية العمائر.

ويجدر التنبيه بأن الغزّال اشتدت عنايته بالعمائر والنقوش حتى خشي كراتشكوفسكي أن يظنّه ظانٌّ أنه أحد علماء النقوش epigraphist ، وأن عبد الرحمن بك سامي عقد فصولاً مستقلة لكل من مستشفيات بيروت ، وأبنية دمشق وخاناتها ، وحمّاماتها ، وجوامعها ، وكنائسها وأديرتها ، وأن عبد اللطيف البغدادي جعل الفصل الرابع من مقالته الأولى للآثار ، والخامس من المقالة نفسها للأبنية والسفن . وقد رفع البغداديُّ من قيمة الآثار ، ودعا إلى الحرص عليها .

ونالت بعض الفنون الأخرى شيئاً من العناية : فقد ذكر ابن وهب القرشيّ أن إمبراطور الصين عرض عليه صوراً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام : نوح في الفلك ، وموسى مع بنى إسرائيل ، وعيسى على حمار ومعه الحواريّون ، ومحمد على جمل والصحابة محدقون به . وأشاد ابن بطوطة بفنون التصوير وتطريز الحرير والخزف في الصين . وأطال الهرويُّ الحديث عن فنّي النحت والعمارة وبخاصة في الأقصر ، وبولس بن الزعيم عن التّصوير في كنائس روسيا . وشاهد الغزّال الرقص الشعبيّ في أسبانيا . وقارن الطهطاويُّ بين الرقص في فرنسا ومصر ، وأثنى على الأوّل وذمّ الثاني .

وأخيراً نال الأدب وبخاصة الشعر بعض العناية : فقد كان بعض الرحّالة – مثل العبدريّ والتمكروتيّ واللقيميّ وإبراهيم الحلبيّ – شعراء ، وبعضهم مولعاً بالشعر ، فاهتمّوا بذكر الشعراء المتصلين بما ذكروه من أماكن ، وأوردوا بعض أشعارهم ، حتى الطويل من قصائدهم ، كما عُني التجانيُّ خاصة بإيراد

المكاتبات النثرية بينه وبين غيره من الأدباء . وبلغ من حبّ الشعر أن أضافه ابن جُزَي إلى مرويّات ابن بطوطة المجرَّدة منه ، ولكن بعض الرحّالة أكثروا من أشعارهم وأشعار غيرهم بحيث لاحت كتبهم أشبه بالمختارات الأدبيّة منها بالرحلات .

٥- الأمور الاقتصاديّة :

دفعت أسباب اقتصاديّة بعض الرحّالة للقيام برحلاتهم ، واضطرّ بعضهم الآخر للاشتغال بالتجارة مثلاً للإنفاق على تلك الرحلات ، فليس غريباً - إذاً- أن يُعنى كثير منهم بالأمور الاقتصادية .

فتحدّثوا عن النظم الاقتصاديّة ، والمراكز التجاريّة ، والتبادل التجاريّ ، والصناعة ، والزراعة ، وتربية الحيوان ، ومنتجات البلاد ، والأسواق ، والمتاجر ، والسلع ، والضرائب - وبخاصّة ما يفرض منها على الرحّالة - والمراكب التجاريّة ، وأنواع العملة والسلع التي تتّخذ أساساً للتقييم ، وغنى بعض الشعوب وفقر بعضها الآخر ، وما يحدث فيها من مجاعات .

الفصل الرابع
لغة الرّحلة

يلفت منا النظر أننا إذا فتشنا عن واحد من كبار الأدباء في القرون الإسلاميّة الأولى منحنا رحلة مدونة ، لم نجد . وإنما ينسلّ إلى هذا الفن الأدباء الأوساط بعد انقضاء قرون طوال ، ثم لا يلجه أحد ممن نعدُّهم من كبار أدبائنا إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، والأخير خاصّة . وقد نعجب لأننا لا نجد واحداً أو اثنين أو أفراداً فقط ، بل نجد غالبيّتهم تُقبل على هذا الفنّ ، وتعطينا منه روائع الأمثلة .

وفي خلدي أن ذلك يكشف عن نظرة الخاصة إلى الأدب . فإنهم لم يعترفوا بالرحلات التي اعتبروها نوعاً من القصص ، وكانت القصص أو أغلبها، في أنظارهم ، فنّاً شعبيّاً ، لا يليق بهم أن يُقْبلوا عليه إلا عند التبذُّل والمجاملة. ولما أخذت القصة المكانة الجديرة بها رافقتها الرحلة في ذلك الانتقال .

ومن الطبيعيّ أن يكون لتلك الظّاهرة آثارها الواضحة في لغة الرحلات وفنّها . ويجب علينا – إذا أردنا أن ندرس هذه اللغة – أن نميّز–كما فعلنا سابقاً – بين مُقدّمات الرِّحْلات ، و وصف الأسفار نفسها . فقد صيغت المقدّمات – شأن أغلب الكتب العربية – في لغة تختلف عن لغة الكتب نفسها ؛ لغة تتعمّد التأنّق ، وتتزيّن بالحلى الأسلوبية التي عرفتها عصورها ، مهما كانت لغة الكتب أنفسها . ومن ثمّ نجد السّجع يتسرّب إليها منذ عصر مبكّر ، حتى عند من لم يقبلوا السّجع .

أمّا وصف السَّفَر فقد صاغه الأوّلون وبعض المتأخرين في لغة بسيطة سهلة سلسة ، لا تحاول صنعة ولا تكلفاً ، بل قربت عند بعضهم من أمثال الرحّالة

المسيحيين من لغة الحديث اليوميّة ، فتسربت إليها بعض الألفاظ العاميّة والتركيّة ، وعراها الوهن الذي عرا الحياة بعامة في عصور التّأخُر .

وينفرد ابن جبير بأسلوب أشاد به جميع من كتبوا عن الرحلات في بساطته وإحكامه ، وجماله المحبّب إلى النفوس ، حتى عندما يتّخذ السّجْع مطيّة له في المقدمات التي صاغها في الثناء على المدن التي أعجب بها . فجعل كثيراً من الكتّاب بعده يحلّون بها كتاباتهم .

ولا نستثني من ذلك إلا عندما أخلد إلى وصف العمائر مثل بناء المسجد الحرام ، أو تحدّث غير ابن جبير عن المسائل العلميّة ، فقد جفّت كتابتهم وخلت من المشاعر .

ثم غلب التّكلّف والمحَسّنات البلاغيّة على الرّحْلات مثل بقيّة الكتابات الأدبيّة حتى تجلّى ذلك في عنواناتها ، واستمرت هذه الصّنعة إلى بدايات العصر الحديث ، فنراها عند رفاعة رافع الطهطاويّ مثلاً .

وأخيراً تخلّصت الرّحْلات من التّكلّف ، واستعادت الحديث المباشر عند أكثر الكُتّاب ، وارتفعت إلى العذوبة والجمال عند الأدباء منهم ، مثل : محمد حسين هيكل ، والدكتور سامي الدهان ، وبنت الشاطئ.

ولعليّ لا أخطئ إذا زعمت أن جميع كُتّاب الرّحْلات عدُّوا تضمين الأشعار تأكيداً لكلامهم وحلية لأسلوبهم ، ولكن بعضهم أفاض في الشعر، سواء ما تعلّق بالرحلة وما لم يتعلّق ، فبدت رحلاتهم أشبه بالمختارات الشعريّة، مثل العبدريّ والتمكروتيّ والغزيّ وسكيكر . وتجاوز بعضهم الشعر إلى غيره من الفنون الأدبية الأخرى ، فملأ سكيكر ، رحلته بالأشعار والألغاز والمعميّات وغيرها من ضروب البديع ، وأكثر التجانيُّ وحجيج الواحديُّ من الرسائل .

ولجئوا إلى الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة ، فأدمجوهما في سياقهم ، أو أوردوهما للحاجة إليهما ، أو تعليقاً على مواقف للتّعليق والفصل .

وغلبت المشاعر الفيّاضة على بعض الرحّالة – والأدباء منهم بخاصّة – ففاضت على أسلوبهم ، فجاءت لغتهم رفيعة المستوى ، عظيمة التأثير والإمتاع . نجد ذلك جليًّا في رحلات الحجّ مثل رحلتي هيكل وبنت الشاطئ، وإن لم نعدمه في غيرها مثل حديث الدكتور سامي الدهان عن مصر في « درب الشوك » .

وقد أشاد كثير من الكُتّاب بالقدرة على الوصف عند كثير من الرحّالة ، ونعتوه بالصدق والدقة والشمول . قال الدكتور أحمد رمضان عن ابن وهب : « لعلّ دقة وصفه تبدو واضحة فيما ذكره عن الإعصار الذي هب على جزائر البحار الشرقيّة .»[١] وعن ابن رشيد الفهريّ : « أجمع نقاد الرحلة على الثناء على ما امتاز به ابن رشيد من وصف دقيق يلحظ في تعبيراته وبين ثنايا ألفاظه .»[٢] وقال الدكتور زكي محمد حسن في حديثه عن رحلة عبد اللطيف البغداديّ : « الحق إنها تمتاز – على اختصارها – بدقة الوصف ... فضلاً عن الاتجاه العلميّ المنتظر من طبيب مثل البغداديّ ... بل إن الفصل الطويل الذي عرض فيه لآثار مصر فيه من دقة الوصف وشدة الإعجاب ما يبدو كأنه بقلم عالم من علماء الآثار المحدثين .»[٣] وقال كراتشكوفسكي عن العبدريّ : « يقدم لنا المؤلف وصفاً دقيقاً وصحيحاً للمواضع والبقاع المختلفة ، مع تفاصيل وافية عن الآثار القديمة وأخلاق السكان المحليّين .»[٤] وعن إلياس الموصليّ : « روايته على العموم تتميّز بالدقة والتفصيل ، فهو يسجّل باهتمام كل ما يقع أثناء الرحلة بما في ذلك الظواهر الطبيعية .»[٥] وعن بولس بن الزعيم : « فيحلّل بالتفصيل الميزات الهامة لفن التصوير بروسيا الجنوبية ، ويبدي نفس هذه الدقة في وصفه للرسوم المصوَّرة على الجدران ، والتي سلبت لبّه بشكل خاص .»[٦]

---

(١) الرحلة ، ص ٤٢ (٢) أحمد رمضان ، ص ٣٤٥ (٣) الرحّالة المسلمون ، ص ١١١ – ١١٢

(٤) تاريخ الأدب الجغرافيّ ، ص ٣٩٨ (٥) المرجع السابق ، ص ٧٧١ (٦) المرجع السابق ، ص ٧٨٩

ولهذا أحسَّ القرّاء بالحياة تشيع في صفحات هذه الرحلات : قال الدكتور زكي محمد حسن عن ابن بطوطة : « فخلّف لنا صوراً صادقة ، كلها حياة للعصر الذي عاش فيه ، و وصف لنا الأشخاص والجماعات وصفاً يجعلنا نشعر كأنهم بين أيدينا .»[١] وقال كراتشكوفسكي عن ابن بطلان : « تعكس انطباعات حيَّة مباشرة عن ذلك العصر المضطرب .»[٢] وعن ابن المجاور : « يسرد بحيويَّة فائقة التَّقاليد البدائية لقبيلة بجيلة التي تقطن محلَّة السرو بين الطائف وتبالة »[٣] ، وعن الوزير الغسانيّ : « إن ما يمتاز به العرض من حيوية وقوة ملاحظة ليقف كفئاً لأحسن أوصاف الرحلات الأوربيَّة لذلك العهد .»[٤]

ومما ساعد على إكساب السياق هذه الحيويَّة الحوار الذي لجأ إليه الرحّالة بين الوقت والآخر ، ومنذ عهد مبكّر . ولعلَّ رسالة ابن فضلان شاهد جليٌّ على ذلك لامتلاء صفحاتها بالحوار بين جميع الأشخاص .

ومن أجل إضفاء الحيويَّة ، وإبعاد الملل ، وإثارة التشوق لدى القراء ، اعتمد كتّاب الرحلات – كما اعتمد عامة الكتّاب قبلهم – على خلط الجدِّ بالهزل، ونثر عناصر الفكاهة في أرجاء كتبهم . نجد أشياء من ذلك عند القدماء ، أمثال بزرك بن شهريار وأسامة بن منقذ ، وعند المتأخرين أمثال عبد الغني بن إسماعيل النابلسيّ ، وعند المحدثين أمثال أحمد فارس الشدياق وفؤاد حمزة وسامي الجريديني . أما الشدياق فقد طبع أسلوبه بروح الفكاهة والتهكُّم فأفاضت عليه مرحاً طبيعيًّا لا تكلُّف فيه ولا تصنُّع ، وإنما يفيض من نفسه كما يفيض الماء من نبعه سلسبيلاً سائغاً؛ فجاءت رحلته مشبعة بروح صاحبها الفكهة العابثة حتى لا تدري أحيانا : أ جادّ هو أم هازل ؟ ويمكن إطلاق هذا القول نفسه على سامي الجريديني . وأما فؤاد حمزة ورفاقه فقد وجدوا في المهندس محمد كنعان مصدر أنس وتباسط بسبب بعض الصفات البوهيميّة فيه.

(١) الرحّالة المسلمون ، ص ١٣٦ ، ١٧١ (٢) تاريخ الأدب الجغرافيّ ، ص ٢٨٨ (٣) المرجع السابق، ص ٣٧٩ (٤) المرجع السابق ، ص ٨١٢

خاتمة

كانت هذه الرحلة التي جبنا فيها كتب الرِّحلات من أجل الوصول إلى إجابة عن سؤال تردَّد عند من كتبوا قبلي ، وألحَّ عليَّ منذ شرعت في البحث والتدوين .

قال كراتشكوفسكي : « يكوّن وصف الرحلة أحياناً قصة ممتازة يسجّل فيها صاحبها كل ما رآه أو ما هو جدير بالاهتمام ، وكثيراً ما تبلغ مستوى عالياً من الفنّ والصياغة الأدبيّة .»[1]

وقال الدكتور زكي محمد حسن : « كان ما كتبه الرحّالة المسلمون عن البحار مصدراً للقصص البحريّة العربيّة ، وهي – على قلّة عددها – من أبدع القصص البحريّة في آداب العالم على الإطلاق ، وحسبنا أن نشير هنا إلى قصة السندباد البحريّ وقصة عبد الله البريّ .»[2]

وقال الدكتور شوقي ضيف : « لا نبالغ إذا قُلنا إن الرِّحْلات من أهم فنون الأدب العربيّ ، لسبب بسيط ، وهو أنها خير ردٍّ على التهمة التي طالما اتُّهم بها هذا الأدب ، ونقصد تهمة قصوره في فنّ القصة .»[3]

و قال الدكتورحسني محمود : « أما القيمة الأدبيّة في الرحلات فتتجلّى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب ، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنّي . وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوُّع في الأسلوب من السرد القصصيّ ، إلى الحوار ، إلى الوصف وغيره ، فإن أبرز ما يميِّزه أسلوب الكتابة القصصيُّ ، المعتمد على السرد المشوق ، بما يقدمه من متعة ذهنيّة كبرى ... ومما تجدر الإشارة إليه أن غالبيَّة هؤلاء الرحّالة المؤلفين كانواكتاباً قبل كل شيء ، فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطّابع القصصيُّ يستندون به إلى الواقع أحياناً ، ويجنحون إلى الخيال أحياناً أخرى ، ويحفلون فيه بالقصص للمتعة التي تسمو به إلى مرتبة الأدب الفنّي الصرف في أغلب

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٣٣١ (٢) الرحّالة المسلمون ، ص ١٨٠ (٣) الرحلات ، ص ٦

الأحيان .»[١]

وأترك هذه الأقوال لنستمر قليلاً مع رحلتنا الخاصة لنتفق أولاً على بعض المعايير التي تعيننا في التّمييز بين الفنّي وغير الفنّي من الرّحْلات . ولتكن هذه المعايير :

١– ما عبر عن انطباعات المؤلف رحلة فنية .

٢– ما حمل آثار شخصية المؤلف رحلة فنية .

٣– ما قصد إلى الإمتاع والتشويق رحلة فنية .

٤– ما اعتنى باللغة رحلة فنية . ولا أريد بهذه العناية التّكلُّف ، وإنما أريد الفطنة إلى أسرار الجَمال الطّبيعيّ والصّناعيّ في اللغة التي يكتب بها ، وحسن استخدام أيهما يشاء الكاتب .

ولذلك أستبعد عن مجال الفن :

١– الرّحْلات التي كتبها العلماء للتّزوُّد من العلوم التي تخصّصوا فيها ، مثل علماء الحديث والجغرافيا والتاريخ والنبات والصيدلة ، ما عدا فقرات منها أحيانًا .

٢– الرّحْلات التي كتبها رجال البريد والحكومة غالبًا لإبانة (الطرق والمسالك بين الممالك) ، هداية لمن يسلكها ، ما عدا بعض الاستطرادات الشّخصيّة فيها .

٣– الرّحْلات التي قام بها علماء طلبًا للعلم ، واقتصروا فيها على ذكر من التقوا به من العلماء ، والعلوم التي تحاوروا فيها ، والكتب التي قرءوها عليهم ، ما عدا بعض الاستطرادات الشخصيّة .

٤– الأجزاء التي وصف فيها الرحّالة الطرق والعمائر وما ماثلها وصفًا جافًّا مباشرًا ، لا يستهدف غير المعرفة ، وإن كانت هذه الأجزاء في رحلات فنيّة .

وعلى الرغم من ذلك لا يبقى أمامنا نمط أدبيٌّ واحد بل عدة أنماط :

١– التقارير التي تمثّلت في رحلات السفارات بعامّة ، مثل رحلة سلام

(١) أدب الرحلة ، ص ١٠ ، ١٦

الترجمان وابن فضلان وأمثالهما .

٢- الرسائل التي تمثلت في رحلات المختار بن المحسن وإبراهيم الحكيم الحلبيّ والدكتور عبد الوهاب عزام . ولن يخدعنا عن هذا النمط تسمية بعض الرحلات - مثل رحلتي ابن فضلان قديماً ومحمد بن سليمان حديثاً - بالرسائل ، لأن الرسالة في هذه الكتب بمعنى الكتاب الصغير ، أما النمط الذي نعنيه فالمكتوب المرسل من شخص إلى آخر بشكله وتقاليده المعروفة .

٣- الرحلة بمعناها الدقيق .

ولكل واحد من هذه الأنماط شكله الخاص ، ولكنها جميعاً عندما تنتمي إلى فن الرحلات - تلتقي عند جوهر الرحلة ، ألا وهو وصف السفر من موضع إلى آخر ، وما تقع عليه أبصار المسافر من مشاهدات ، وما يستطرفه من أخبار .

وقد عنيت جميعاً بإيراد هذه الأخبار في شكل قصصيٍّ ، ولكن هذا الشكل القصصيّ واكب في الرحلات الفنّ القصصيّ في الكتب الأدبيّة . فكان في الرحلات القديمة مجموعة من الأقاصيص تتفاوت في أطوالها ، وتتوالى بعضها وراء بعض ، دون رابطة ، غير راويها أو القائم بها ، وفي العصر الحديث أخذت في الابتعاد عن الشكل القديم ، والترابط معاً ، بل وصلت عند بعض الكُتّاب إلى الشكل الروائيّ ، كما نرى في « خمسة في سيارة » لسامي الجريدينيّ .

وليس معنى ذلك أننا نستطيع أن نعدّها من النمط الروائيّ ؛ فلهذا الجنس الأدبيّ قوانينه من عقدة ، وحبكة ، وأشخاص متطوّرين ... إلخ ، ولا تأبه الرحلة الواقعيّة للكثير من هذه القواعد ، إلا إذا كانت خياليّة محضة ، وأراد بها صاحبها أن تكون رواية .

وعلى أيّة حال ، فإن الرحلة الأدبية إن لم تكن قصة ولا رواية بالمعنى الدقيق فهي أخت شقيقة لهما .

ثبت بعناوين مجموعة منتقاة من الرحلات

إبراهيم رفعت باشا (١٢٧٣ – ١٣٥٣هـ / ١٨٥٧ – ١٩٣٥ م)

مرآة الحرمين . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٤٤ هـ

إبراهيم عبده

١ – السندباد العربي في الكويت . القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥.

٢ – في السودان . القاهرة ، مطبعة مجلتي ، ١٩٣٦. ٢٤٧ ص ، مصور

٣ – في المصايف . القاهرة ، مطبعة سكر ، ١٩٣٤. ١٥٧ ص ، مصور

ابن بطوطة ، شرف الدين محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي أبو عبد الله (٧٠٣ – ٧٧٩ هـ / ١٣٠٤ – ١٣٧٧ م)

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ؛ أو رحلة ابن بطوطة . القاهرة ، المطبعة الخيرية ، ١٣٢٢ – ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م. ٢ ج في مج .

ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني (٥٤٠ – ٦١٤ هـ / ١١٤٥ – ١٢١٧ م)

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ؛ أو رحلة ابن جبير . القاهرة ، دار مصر للطباعة، ١٩٥٥. ١٢ ، ٣٦٤ ص .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ – ١٤٠٦م)

التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١. ٢٦ ، ٤٥٩ ص

ابن رُشَيد الفِهْري ، محمد بن محمد بن عمر (٦٥٧ – ٧٢١ هـ / ١٢٢٩ – ١٣٢١ م)

ملء العَيْبة ، فيما جمع بطول الغيبة ، في الوجهة الواجهة إلى الحرمين : مكة وطَيْبة.

ابن شاهين ، غرس الدين خليل الظاهري (٨١٣ - ٨٧٣ هـ / ١٤١٠ - ١٤٦٨)

زبدة كشف الممالك ، وبيان الطرق والمسالك . باريس ، المطبعة الجمهورية، ١٨٩٤ . ١٥٧ ص

ابن عثمان المكناسي ، محمد بن عبد الوهاب (١٢١٣ هـ / ١٧٩٩ م)

الإكسير في فكاك الأسير . الرباط ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، د.ت.

ابن فضلان ، أحمد (بعد ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)

رسالة ابن فضلان . دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٩ .

ابن محاسن ، يحيى بن أبي الصفا (١٠٥٣ هـ / ١٦٤٣ م)

المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية . بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨١ .

أبو الجمال ، محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي

الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية . فاس ، مطبعة جامعة محمد الخامس، ١٩٦٧ .

أبو دلف ، مِسْعَر بن مهلهل الينبعي (نحو ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م)

الرسالة الثانية . القاهرة ، مطبعة مخيمر ، ١٩٧٠ .

أحمد أبو الفتح

شهر في نيويورك. القاهرة ، مطابع جريدة المصري ، ١٩٥٢. ١٤٥ ص (كتب للجميع)

أحمد بهاء الدين

شهر في روسيا . القاهرة ، دار النديم ، ١٩٥٥. ١٥٩ ص

أحمد الجرجاوي

الرحلة اليابانية . القاهرة ، ١٣٢٥ هـ .

أحمد حسين

١ - مشاهداتي في جزيرة العرب . القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٥٠. ٣٧٥ ص

٢ - من وحي الجنوب . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٨ .

أحمد حسين شرف الدين

رحلة إلى المغرب العربي . القاهرة ، دار الثقافة ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م

أحمد زكي

١ – الدنيا في باريس ؛ أو أيامي الثالثة في أوربا. القاهرة ، ١٩٠٠. ٢٨٢، ٨ ، ٨ ص

٢ – السفر إلى المؤتمر. القاهرة ، المطبعة الكبرى ، ١٣١١ هـ. ٤٠٠ ص

أحمد شفيق

١ – مذكرات عن زيارة إلى دير طور سينا ، وطواف بالسيارة في صحراء شبه جزيرة سيناء. القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٢٧. ٣١ ص ، ١٢٦ لوحة

٢ – مذكرات عن واحات مصر والصحراء الغربية . القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٢٩. ٨١ ص

أحمد الصاوي محمد

باريس . القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣. ٤٠٦ ، ١٠ ص

أحمد عبد المجيد

سندباد دبلوماسي . القاهرة ، دار المعارف ١٩٧٣. (اقرأ – ٣٧٦)

أحمد عطية الله

١ – برلين . القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي ، ١٩٣٦ . ٣١٧ ص ، مصور

٢ – على الدانوب . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٣٩. ٤٠٠ ص، مصور

٣ – لندن . القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٣٤ . ٣٦٨ ص

٤ – يوم في أوربا . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٣٧ . ٢٠٠ ص

أحمد فريد رفاعي

رحلتي إلى اليمن السعيدة . القاهرة ، مطبعة محمد على صبيح ، ١٩٥٠. ١٥٣ ص

أحمد مبروك

رحلة إلى بلاد العرب . القاهرة ، طبع قسم تربية الحيوانات بالجمعية الزراعية ، ١٩٣٨ . ٩٧ ص

أحمد محمد حسنين

في صحراء ليبيا . القاهرة ، ١٩٢٤ - ١٩٢٦. ٢ ج ، مصور

أحمد معوض أحمد

لبنان . القاهرة ، ١٩٥٢. ٢٠٢ ص

إدوار إلياس (١٢٩٥ - ١٣٦٨ هـ / ١٨٧٨ - ١٩٤٨ م)

مشاهد أوروبا وأميركا . القاهرة ، مطبعة المقتطف ، ١٩٠٠ . ٥٠٠ ص

أسما حليم

٨ أيام في الصعيد . القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٤ . ٣٢ ص

إسماعيل سرهنك

حقائق الأخبار عن دول البحار . القاهرة ، بولاق ، ١٩٢٣. ١٢٨ ص

إسماعيل صدقي

رسالة البحر . القاهرة ، ١٩٣٨ . ٣١ ص

الأعسم النجفي ، عبد الحسين بن عباس

الرحلة الأعسمية في الديار الهندية ؛ أو الزهور في رامبور . بومبي (الهند) ، المطبعة الحجازية ، ١٣٤٦ هـ .

الأعظمي الأزهري ، عبد الحق حقي البغدادي

الكهف والرقيم في ملخص رحلة المصلح العظيم . عليكره (الهند) ، المطبع الأحمدي ، ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م

إلياس الغضبان

الرحلة المقدسة. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٩. ٧٢ ص

أماني فريد

١ – مصرية في ربوع الشام . القاهرة ، مطبعة العلوم ، ١٩٤٨. ٤ ، ١٣٠ ص

٢ – رحلات أخرى

أمينة السعيد

مشاهدات في الهند. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٦ . ١٦٠ ص (اقرأ – ٤٥)

الإندونيسي ، أنور عبد القادر

جولتي في أرض الكنانة. القاهرة ، دار مصر للطباعة ، ١٩٥١ . ١١٠ص

أنيس منصور

حول العالم في ٢٠٠ يوم . ط٩ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٤ .

الباجوري ، محمود عمر (بعد ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م)

الدرر البهية في الرحلة الأوروباوية . القاهرة ، مطبعة محمد مصطفى ، ١٨٩١.
٧٦ص

باشري عبد الرحمن

مذكرات رحالة ورحلة بالأريتريا. القاهرة مطبعة عباس ١٩٣٦. ٩٤ ، ٢ص

البيلاوي ، محمود علي محمد

١ – الرحلة الحجازية. القاهرة ١٣٢٨ هـ . ٢٦٨ ص

٢ – رحلة الصيف إلى أوربا. القاهرة ، مطبعة اللواء ، ١٩٠١. ٢٦٢ص

البتنوني ، محمد لبيب (١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م)

١ – الرحلة إلى أميركا . القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٣٠. ٢٣٣ ص، مصور

٢ – الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر .
القاهرة ، مطبعة الجمالية ، ١٣٢٩ هـ .

٣ – رحلة الأندلس . القاهرة ، مطبعة الكشكول ، ١٩٢٧ . ١٦٧ ص، مصور

البدري الدمشقي ، عبد الله بن محمد أبو البقاء

نزهة الأنام في محاسن الشام . القاهرة ، المطبعة السلفية ١٣٤١ هـ . ٣٩٢ص

البركاتي اليمني ، شرف بن عبد المحسن

الرحلة اليمانية . القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م. ١٢٧ص

بزرك بن شهريار الناخداه الرامهرمزي

عجائب الهند .

البغدادي ، عبد اللطيف بن يوسف (٥٥٧ - ٦٢٩ هـ/١١٦٢ - ١٢٣١م)

الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. القاهرة ، مطبعة وادي النيل ، ١٢٨٦ هـ/١٨٦٩ م . ٦٤ص

بنت بطوطة (مستعار)

المغامرات البحرية. القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٥١. ٢٤٩ ص

بنت الشاطئ (د. عائشة عبد الرحمن)

أرض المعجزات. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥١. (اقرأ)

التجاني ، عبد الله بن محمد أبو محمد (٦٧٥؟ - ٧٢١ هـ / ١٢٧٦ - ١٣٢١م)

رحلة التجاني. تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨١ .

التجيبي السبتي ، القاسم بن يوسف (نحو٦٧٠-٧٣٠ هـ/ ١٢٧١ - ١٣٢٩ م)

مستفاد الرحلة والاغتراب . تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٧٥.

توفيق ميخائيل

غرائب الأخبار عن شرق إفريقيا وزنجبار . القاهرة ، مطبعة التمدن ، ١٩٠١.
١١٥ص ، مصور

جرجي زيدان

رحلة جورجي زيدان إلى أوربا سنة ١٩١٢. القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٢٣.
١٥٢ص ، لوحات ، مصور

الجزيري الأنصاري ، عبد القادر بن محمد (٩١١ – نحو ٩٧٧ هـ / ١٥٠٦ – ١٥٧٠ م)

درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة . القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٨٤ هـ .

الجمّال ، علي حمدي

العملاق الأصفر. القاهرة ، المطبعة العالمية ، ١٩٥٦. ١٣٢ ص

جميل خانكي

مشاهدات سائح في دول الشمال. القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٣٨ . ١٦٦ ص ، مصور

الجندي ، نجيب حسين

منظر أوربا العجيب ، وملخص رحلات نجيب . القاهرة ، مطبعة الهداية ، ١٣٢٩ هـ ٣٣٨ ص ، لوحات

جورج عزيز

أمريكا بيت جحا . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٥. ١٥٨ ص

جوزيف رعد

العالم بين يديك . بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٤ .

الجيزي ، الربيع بن سليمان المرادي أبو محمد (١٧٤–٢٧٠ هـ/٧٩٠–٨٨٤ م)

رحلة الإمام الشافعي من مكة إلى ينبع . القاهرة ، طبع محب الدين الخطيب ، ١٣٥٠ هـ . ٢١ ص

حسن فريد

سحر أميركا. القاهرة ، المطبعة العصرية ، ١٩٤٥. ٤ ، ٦٨ ص

حسن محمد جوهر

١ – حياة الناس في البلاد الأخرى. القاهرة ، مطبعة الشعب ، د.ت.

٢ - في ربوع السودان وفي ربوع أخرى . القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٠ .
٧٢ ص

حسني عبد الحميد

الزعيم في الصعيد . القاهرة ، مطبعة النهضة ، ١٩٣٥ . ٢٥١ ص ، مصور

حسين القباني

حول العالم على كرسي متحرك . الرياض ، عكاظ للنشر والتوزيع ، ١٩٨١ .

حسين اليماني

رحلة سمو الأمير سيف الإسلام ولى عهد اليمن المعظم أحمد ابن أمير المؤمنين في أنحاء اليمن . القاهرة ، مطبعة أنصار السنة المحمدية ، ١٣٥٨ هـ . ٤٨ ص

حسين فوزي

١ - رحلة الباخرة المصرية مباحث إلى المحيط الهندي . القاهرة ، دار الطباعة المصرية ، ١٩٣٩ . ١١٨ ، ٦ص ، ١ل ، ١خ

٢ - سندباد إلى الغرب. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ . ٢٩٤ ص

٣ - سندباد في سيارة. القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٧٢ .

حسين مؤنس

رحلة الأندلس : حديث الفردوس المفقود. القاهرة ، مطابع كوستا تسوماس ، ١٩٦٣ .

الحسيني الموسوي ، العباس بن علي المكي (١١١١ - ١١٨٠ هـ / ١٦٩٩ - ١٧٦٦ م)

نزهة الجليس ، ومنية الأديب الأنيس . النجف ، المطبعة الحيدرية ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ .

الحقيل ، عبد الله بن حمد

رحلات وذكريات. جدة ، مطبوعات تهامة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

الحلبي ، محمود خير الدين

عشر سنوات حول العالم. دمشق ، مطبعة ابن زيدون ، ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

حلمي مراد (محرر)

١ - رأيت وسمعت لك في أوربا . القاهرة ، دار النشر للجامعات ، ١٩٥٥ .
(كتابي-٣٧)

٢ - رأيت وسمعت لك في فلورنسا . القاهرة ، دار النشر للجامعات ، ١٩٥٥ .
(كتابي -٣٦)

٣ - رأيت وسمعت لك في النمسا . القاهرة ، دار النشر للجامعات ، ١٩٥٥ .
(كتابي - ٣٨)

حمد الجاسر

١ - رحلات. الرياض ، دار اليمامة ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

٢ - في سراة غامد وزهران. بيروت ، مطبعة المثنى ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .

٣ - في شمال غرب الجزيرة. بيروت ، مطبعة المثنى ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

حورية جلال

السندباد العربي في البحرين . القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ .

الحيمي الكوكباني ، الحسن بن أحمد (١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م)

سيرة الحبشة ؛ أو حديقة النظر وبهجة الفكر في عجائب السفر . القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، ١٩٥٨ .

خوبري ، ق . ب.

الرحلة السورية في الحرب العمومية سنة ١٩١٦ . القاهرة ، المطبعة اليوسفية ، ١٩٢١. ٩٦ ص

الخياري المدني ، إبراهيم بن عبد الرحمن (١٠٣٧-١٠٨٣ هـ / ١٦٢٨ - ١٦٧٢ م)

تحفة الأدباء وسلوة الغرباء. بغداد ، طبع مديرية الثقافة العامة بوزارة الثقافة والإعلام ،

د.ت.

الدرعي ، أحمد محمد بن ناصر (١٠٥٧ - ١١٢٩ هـ / ١٦٤٧-١٧١٧ م)

الرحلة الناصرية. فاس ، ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢. ٢مج

درية شفيق

رحلتي حول العالم. القاهرة ، دار بنت النيل ، ١٩٥٦. ١٤٣ ص

الدسوقي محمد حسن سلامة

رياض المدينة في الحضارة الإسلامية. طنطا ، المطبعة اليوسيفية ، ١٩٣٤. ٨٤ ص

الدمرداش محمد

من سير الرحلات. القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٤٤ . ١٢ ، ١٦٣ ص

الدهان ، سامي إبراهيم (١٣٢٨ - ١٣٩١ هـ / ١٩١٠ - ١٩٧١ م)

درب الشوك. بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٩ .

رفعت الجوهري

١ - أسرار من الصحراء الغربية : نواح مجهولة من البلاد المصرية. القاهرة ، دار المعارف ،١٩٤٧ . ١٢ ، ٣٢٨ ص

٢ - جنة الصحراء : سيوة أو واحة أمون. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٦. ٨ ، ٢٣١ ص

الرويشد ، عبد الله بن سعد

أيام في تونس. القاهرة ، طبع رابطة الأدب الحديث .

الريحاني ، أمين فارس (١٢٩٣ - ١٣٦٨ هـ / ١٨٧٦ - ١٩٤٠ م)

١ - المغرب الأقصى. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٢. ٦٨٢ ص

٢ - قلب لبنان ؛ رحلات صغيرة في جبالنا. القاهرة ، ١٩٤٨ . ٦١٠ص

٣ - ملوك العرب ؛ أو رحلة في البلاد العربية. بيروت ، ١٩٣٤ .

الزرقاني ، اعتقاد أمين

السندباد العربي في المغرب. القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٧٤ .

الزركلي ، خير الدين

١ – عامان في عمان. القاهرة ، المطبعة العربية ، ١٩٢٣ . ١٩٠ ص

الزعيم ، محمد سعيد

رحلة إلى الشمال الإفريقي ، ووقفة على أطلال الأندلس. حلب ، ١٩٥٨ .

الزياتي ، أبو القاسم بن أحمد بن علي (١١٤٧ – ١٢٤٩ هـ / ١٧٣٤ – ١٨٣٣ م)

الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. المحمدية ، مطبعة فضالة ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ .

سامي جريديني

خمسة في سيارة. القاهرة ، مطبعة المقتطف والمقطم ، ١٩٣٠. ١١٤ص

السراج المراكشي ، ابن مليح محمد بن أحمد القيسي

أنس الساري والسارب ، من أقطار المغارب ، إلى منتهى الآمال والمآرب ، سيد الأعاجم والأعارب. فاس ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

سعودي ، محمد علي

رحلتنا محمد علي سعودي في بلاد الحجاز وجزيرة العرب . القاهرة ، ١٩١٩ .
(النص العربي تقابله ترجمة باللغة الفرنسية)

سليمان الحكيم

مشاهداتي في الخارج. شبين الكوم ، مطبعة مؤسسة تربية البنين ، ١٩٥٠. ٦٠ ص

السيّد فرج

١ – في ربوع السودان. القاهرة ، مطبعة مخيمر ، ١٩٦٩ .

٢ – في شمال افريقيا. القاهرة ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٤. ١١١ص

السيرافي ، الحسن أبو زيد

سلسلة التواريخ. باريس ، ١٨١٥ . ١٠٥ ، ٢٠٢ ص .

الشدياق ، أحمد فارس (١٢١٩-١٣٠٤ هـ/١٨٠٤-١٨٨٧م)

١ – كشف المخبا عن فنون أوربا . الآستانة ، مطبعة الجوائب ، ١٢٩٩ هـ .
٦٠ص

٢ – الواسطة في معرفة أحوال مالطة . الآستانة ، مطبعة الجوائب ، ١٢٩٩ هـ .
٣٦١ ص

الشرماني ، أحمد محمد

الجناح المحلق في سماء الشرق . ج١ القاهرة ، إدارة الطباعة المنيرية ، ١٩٥٠.
١٤٤ ص / ج ٢ القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٥١. ١٤٣ص

شفيق صبري

بين البحر والصحراء. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٦. ١١٧ ص (اقرأ – ٤٩)

أمير سوري في إيطاليا. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٣٤. ٣٥ ص

شكيب أرسلان

الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ؛ أو الرحلة الحجازية. القاهرة، مطبعة المنار ، ١٣٥٠ هـ . ١٤٠ ، ٢٨٦ ، ٤ص

شكيب الأموي

١ – قصة رحلة إلى الشرق الأقصى. الدار السعودية ، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م .

٢ – مفاتن الصحراء. القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٥. ٢١٤ ص

الشنقيطي الجكني ، محمد الأمين (١٣٢٥-١٣٩٣ هـ / ١٩٠٧ – ١٩٧٣ م)

رحلة الحج إلى بيت الله الحرام . جدة ، دار الشروق ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

الشهابي المخزومي ، محمد سليم (بعد ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م)

الرحلة الحجازية. الإسكندرية ، المطبعة التجارية ، ١٣١٧ هـ . ١٢٦ ص

الصحافي العجوز (توفيق حبيب ١٢٩٧ – ١٣٦٠ هـ/ ١٨٨٠-١٩٤١ م)

شهران في لبنان وبلاد اليونان وإيطاليا وطرابلس الغرب. القاهرة ، مطبعة الأمانة .

صلاح البكري

في جنوب الجزيرة العربية . القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٤٩.
٢٩٢ص

صلاح ذهني

صور من أوربا. القاهرة ، مكتبة الآداب ، ١٩٤٩. ١٣٢ ص

صلاح عزام

٧ أيام في المملكة العربية السعودية. القاهرة ، دار التراث العربي .

الصواف ، محمد محمود

رحلاتي إلى البلاد الإسلامية . بيروت ، دار القرآن الكريم ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م

الطالوي الأرتقي ، درويش محمد بن أحمد أبو المعالي

رحلته (انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمن ٤٨٩/٢ رقم ٧ ، الملحق)

طاهر الزمخشري

المهرجان ؛ أو ذكرى الرحلة الفيصلية الأولى للدنيا الجديدة . القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٤٥. ٧٩ ص

طه حسين

رحلة الربيع والصيف. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٨. ١١٨ ص (اقرأ – ٦٩)

الطهطاوي ، رفاعة بدوي رافع (١٢١٦-١٢٩٠ هـ / ١٨٠١- ١٨٧٣م)

تخليص الإبريز في تلخيص باريز ؛ أو الديوان النفيس بإيوان باريس. القاهرة، مطبعة التقدم ، ١٩٠٥. ٨،٢٦٣ ص

عباس متولي حمادة

مشاهداتي في الحجاز. القاهرة ، مطبعة المستقبل ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦-١٩٣٧م .
١٥٨ ، ٣ ص

عبد الرحمن حمدي

ذكريات دبلوماسي غير مدونة. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧ .

عبد الرحمن سامي

القول الحق في بيروت ودمشق. بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

عبد السلام العجيلي

دعوة إلى السفر. بيروت ، دار عويدات ، ١٩٦٣ .

عبد القادر حمزة

ليلتان في اليمن. القاهرة ، دار البلاغ ، ١٩٤٨. ٩٣ ص

عبد الكريم الجهيمان

دورة مع الشمس . الرياض ، مطابع الفرزدق ، د.ت.

عبد اللطيف واكد

مريوط جنة الصحارى الإفريقية. القاهرة ، مطبعة المقتطف ، ١٩٤٧. ١١٩ ص

عبد الله أبو العباس (٩٦٧ – ١٠٢٢ هـ / ١٥٦٠ – ١٦١٣ م)

في بلاد الحجاز وجزيرة العرب. القاهرة ، ١٩١٩ .

عبد الله عبيد

سوداني في الصين الشعبية. القاهرة ، دار الفكر ، ١٩٥٦. ١٢٣ ، ٨ ص

عبد المسيح الأنطاكي

١ – رحلة عظمة السلطان حسين في رياض البحرين . القاهرة ، مطبعة التوفيق ، ١٩١٦. ٢ مج

٢ – الرياض المزهرة بين الكويت والمحمرة . ط ٢ القاهرة ، مطبعة العرب ، ١٣٢٥ هـ .

عبد المنصف محمود

١ – على ضفاف بحيرة البرلس. القاهرة ، ١٩٤٨. ١٩٠ص

٢ – على ضفاف بحيرة المنزلة. القاهرة ، ١٩٤٧. ١٧٨ ص

٣ – على ضفاف بحيرة قارون. القاهرة ،١٩٤٧. ١٩٠ ص

٤ – على ضفاف بحيرة مريوط. القاهرة ،١٩٤٧. ١٩٠ ص

عبد المنعم حسين

مغامراتي في أوربا المحتلة . ط٢ القاهرة ، دار الكتب الأهلية ، ١٩٤٤ .

عبد المنعم رياض شوقي

من فوق السحاب. القاهرة ، مطبعة أبو فاضل ، ١٩٥١. ٧٩ ص

عبد المنعم الصاوي

في الصين . القاهرة ، دار الجمهورية ، ١٩٥٦. ١٦٧ ص (كتب للجميع – ١٠١)

عبد الوهاب أبو العيون

مشاهدات سائح في الممالك الأوربية. القاهرة ، المطبعة الحديثة .

عبد الوهاب خضير

مشاهداتي في بلاد الحجاز . ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م

عبد الوهاب عزام

رحلات . القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٣٥٨ – ١٣٧٠ هـ / ١٩٣٩ – ١٩٥١ م .
٢ مج

العَبْدري الحيمي ، محمد بن محمد أبو عبد الله (نحو ٧٠٠هـ / ١٣٠٠ م)

رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية. الرباط ، ١٩٦٨ .

عبده الشامي

رحلة الصيف في ربوع أوربا . القاهرة ، مطبعة جريدة الصباح ، ١٩٥٥. ٩٢ ص

العبّودي ، محمد بن ناصر

رحلة إلى جزر مالديف. القاهرة ، دار العلوم ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

عدنان حسني تللو

حول العالم على دراجة نارية : ١٥٣ كيلو مترا في ٧سنوات . ط٧ دمشق، مطبعة الاتحاد .

العطيفي ، رمضان بن موسى (١٠١٩-١٠٩٥ هـ/١٦١٠-١٦٨٤ م)

رحلة من دمشق الشام إلى طرابلس. بيروت ، ١٩٧٩ .

العظم ، نزيه مؤيد

رحلة في بلاد العربية السعيدة ، من مصر إلى صنعاء . القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي . ٢ ج في ١مج ، مصور

علي إسلام

أسبانيا والأندلس. القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٩٥١. ١٠٠ ص ، مصور

علي الجندي

خمسة أيام في دمشق الفيحاء. القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٩ .

علي الدوعاجي

جولة بين حانات البحر المتوسط. تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٣ .

علي الطنطاوي

حلم في نجد. الرياض ، دار الأصالة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م

علي يوسف

أيام الجناب الخديوي المعظم عباس الثاني في دار السعادة . القاهرة ، مطبعة الآداب ، ١٣١١ هـ .

العوامري ، محمد حقي

الرحلة الاسطنبولية. الإسكندرية ، ١٣٣٠ هـ . ١٠٠ ص

العياشي ، عبد الله بن محمد أبو سالم (١٠٣٧-١٠٩٠هـ/ ١٦٢٧-١٦٧٩ م)

ماء الموائد ؛ أو الرحلة العياشية . الرباط ، ١٩٧٧ .

عيسى الناعوري

في ربوع الأندلس. تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

الغرناطي ، محمد بن عبد الرحيم الغرناطي أبو حامد المازني القيسي (٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م)

تحفة الألباب ونخبة الأعجاب. باريس ، المجلة الآسيوية ، يوليو – سبتمبر، ١٩٢٥ .

الغزّال الحميري ، أحمد بن المهدي الفاسي (١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م)

نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد . بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٠ .

فاروق جويدة

بلاد السحر والخيال. القاهرة ، مكتبة غريب ، ١٩٨١ .

فتح الله أنطاكي

الهند كما رأيتها. القاهرة ، مطبعة وديع أبو فاضل ، ١٩٣٣. ٢١٦ ص ، ٦ل

فرج جبران

١ – تعال معي إلى أمريكا . القاهرة ، المطبعة التجارية الحديثة ، ١٩٥٢. ٢٣٩ ص

٢ – تعال معي إلى أمريكا اللاتينية . القاهرة ، المطبعة التجارية الحديثة ، ١٩٥٤. ١٩٠ ص

٣ – رحلات أخرى .

فرنسيس المراش (١٢٥٢–١٢٩٠ هـ / ١٨٣٦–١٨٧٣ م)

رحلة إلى باريس. بيروت ، مطبعة الشرفية ، ١٨٦٧. ٧٢ ص

فهمي عطا الله

أيامي. ج١ القاهرة ، مطبعة الفكرة ، ١٩٤٧ . ٢٣٢ ص

فؤاد حمزة

في بلاد عسير. الرياض ، مكتبة النصر الحديثة ، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م

فؤاد شاكر

١ – رحلاتي في ميادين العمل والجهاد . القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٤.

٨ ، ٣٧٢ ص

٢ - رحلة الربيع. القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٦ . ٢٥ص

قاسم رؤوف

ما شاهدت وصورت. البصرة ، مطبعة البصرة ، ١٩٧٠ .

القاياتي ، محمد عبد الجواد

نفحة البشام في رحلة الشام . القاهرة ، مطبعة جريدة الإسلام ، ١٣١٩ هـ ٢٠٠ ص

القلصادي ، علي بن محمد القرشي (٨١٥-٨٩١ هـ / ١٤١٢ -١٤٨٦ م)

تمهيد الطالب ؛ أو رحلة القلصادي. تونس ، الشركة التونسية ، ١٩٧٨ .

كامل زهيري

العالم من ثقب الباب. بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣ .

كبريت ، محمد بن عبد الله الحسيني الموسوي المدني (١٠١٢-١٠٧٠ هـ/١٦٠٣-١٦٦٠ م)

رحلة الشتاء والصيف. بيروت ، مطابع المكتب الإسلامي ، ١٣٨٥ هـ .

الكردودي ، أحمد بن محمد أبو العباس (١٢٤٠-١٣١٨هـ/ ١٨٢٤-١٩٠٠م)

التحفة السنية للحضرة الحَسَنية بالمملكة الأصْبَنْيوليّة . الرباط ، المطبعة الملكية ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣ م .

كركوكي ، محمد مهري

رحلة مصر والسودان . القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١٤. ٥٠٦ ، ٨ ص ، مصور

الكوراني ، علي سيدو

من عمان إلى العمادية ؛ أو جولة في كردستان الجنوبية . القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٩. ٢٧٢ ص ، مصور ، خرائط

لبيب سالم

صور. القاهرة ، مطبعة نهضة مصر ، ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م .

المازني ، إبراهيم عبد القادر (١٣٠٨-١٣٦٨ هـ/١٨٩٠-١٩٤٩ م)

رحلة الحجاز. القاهرة ، مطبعة فؤاد ، ١٩٣٠. ١٦٦ ص ، مصور

محمد الخضر حسين

الرحلات. بيروت ، المطبعة التعاونية ، ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م .

محمد أمين حسونة

وراء البحار. القاهرة ، مطبعة الشمس ، ١٩٣٦. ١٩٩ ص ، مصور

محمد أمين فكري

إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا. القاهرة ، مطبعة المقتطف ، ١٨٩٢. ٨٢٣ ص

محمد بيرم الخامس بن مصطفى التونسي (١٢٥٦-١٣٠٧ هـ / ١٨٤٠-١٨٨٩ م)

صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار. القاهرة ، المطبعة الإعلامية ، ١٣٠٢-١٣١١ هـ. ٥ مج

محمد ثابت

١ - جولة في ربوع آسيا ؛ بين مصر واليابان . القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٣٦. ٢٣٤ ص

٢ - جولة في ربوع أستراليا ؛ العالم كما رأيته. القاهرة ، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٦. ٢٥٦ ص

٣ - جولة في ربوع إفريقية ؛ بين مصر ورأس الرجاء الصالح . القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٣. ٢٨٨ ص ، مصور

٤ - رحلات أخرى :

محمد حسين هيكل

١ - عشرة أيام في السودان . القاهرة ، المطبعة العصرية ، ١٩٢٧. ٢١٨ ص ، مصور

٢ - في منزل الوحي. القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٧ . ٦٧٢ ص

محمد رشاد

سياحة في الروسيا. القاهرة ، مطبعة التقدم ، ١٩١٥. ١١٦ ص

محمد رفعت

٥٠ يوم في باريس. القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٢. ١٥٨ ص .

محمد سليمان

رسائل سائر من بلاد العرب إلى بلاد اليونان. القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٣. ٢٦٤ ص

محمد علي (الأمير ١٢٩٢-١٣٧٤ هـ / ١٨٧٥ - ١٩٥٥ م)

١ - رحلة الأمير محمد علي إلى البلاد الهندية. القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٢٩. ٢٤٨ ص ، مصور

٢ - رحلة الصيف إلى بلاد البوسنة والهرسك سنة ١٩٠٠ . القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٠٦. ٦٩ ص

٣ - رحلات أخرى .

محمود تيمور

الأيام المئة ومشاهد أخرى (أربع رحلات) . بيروت ، المكتبة العصرية ، د . ت .

محيي الدين رضا

١ - بجوار الكعبة المشرفة. القاهرة ، ١٩٥٤. ١١٨ ص

٢ - في موطن جبران خليل جبران . القاهرة ، المطبعة التجارية الحديثة ، ١٩٥١. ١٩٢ ص

٣ - رحلات أخرى .

المدوّر ، جميل نخلة

حضارة الإسلام في دار السلام . القاهرة ، طبع وزارة المعرف العمومية ، ١٩٣٧.

٣٠٢ ص

مراد كامل

في بلاد النجاشي. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٩. (اقرأ -٨١)

المصري ، عبد الحليم حلمي

الرحلة السلطانية وتاريخ السلطة قديما وحديثا. القاهرة ، ١٩٠٩. ٢ مج

ميشيل سليم يمين

سحر لبنان. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٥. ٢٥٤ ص

النابلسي ، عبد الغني بن إسماعيل

١ - التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية .

٢ - الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية . القاهرة ، مطبعة جريدة الإخلاص ، ١٩٠٢ .

٣ - الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز .

٤ - حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز. بيروت ، ١٩٧٩.

الناظر ، السيد أحمد عوض

مشاهداتي ثلاث سنوات في روسيا السوفيتية . القاهرة ، شركة فن الطباعة ، ١٩٥٣. ٢٧٥ ، ٢٠ ص

الناقص ، أحمد محمد

١ - آسيا . القاهرة ، المطبعة المستقلة ، ١٩٢٧. ٨٩ ص

٢ - إفريقيا . القاهرة ، المطبعة المستقلة ، ١٩٢٧. ٨٠ ، ١خ

نجيب فرج

جولة بين آثار الأقصر. القاهرة ، المطبعة التوفيقية ، ١٩٣٣. ١٩ ص

الندوي ، علي الحسني

١ - مذكرات سائح في الشرق العربي . القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٣٧٣هـ /

١٩٥٤ م

٢ – من نهر كابل إلى نهر اليرموك . القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٧٤ .

نزيه مسعد

ليالي باريس. القاهرة ، مطبعة الإخاء ، ١٩٣٤. ٢٠٠ ص ، مصور

نسيم خلاط

سياحة في غربي أوربا. القاهرة ، مطبعة المقتطف ، ١٩٠١. ١٧٠ ص

الهاشمي ، غريب بن عجيب

سياحتي إلى الحجاز. القاهرة ، ١٩١٥. ٤٩٧ ص

الهروي ، علي بن أبي بكر (٦١١ هـ / ١٢١٥ م)

الإشارات إلى معرفة الزيارات . دمشق ، ١٩٥٣ .

الواحدي ، جحيج بن قاسم (بعد ٩٩٢ هـ / ١٥٨٤ م)

رحلته . مخطوطة في معهد الدراسات الشرقية ، موسكو رقم ف ٨٠٠

الوَرْثيلاني ، الحسين بن محمد (١١٢٥-١١٩٣ هـ / ١٧١٣ - ١٧٧٩م)

نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ؛ أو الرحلة الورثيلانية. تونس .

الوزير الغساني ، محمد بن عبد الوهاب (١١٩ هـ / ١٧٠٧ م)

رحلة الوزير في افتكاك الأسير. طنجة ، ١٩٤٠ .

الوليلي ، إبراهيم مصطفى

ما وراء خزان أسوان أو بلاد النوبة . القاهرة ، مطبعة الصباح ، ١٩٢٧. ١١٤ ص

ى . ز .

من الأهرام إلى جبال الأندلس . الإسكندرية ، دار الجعران للنشر ، ١٩٥٣. ٢، ٦٨ ص

يوسف يسي

الرحلة الملكية. الرياض ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٣١٣هـ

الرحلات المترجمة

أبو طالب خان

رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربة ، ترجمة مصطفى جواد . بغداد ، مطبعة الإيمان ، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م

أبونتي ، سلفاتور

مملكة الإمام يحيى ؛ رحلة في بلاد العربية السعيدة ، تعريب طه فوزي . القاهرة، مطبعة السعادة ، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧ م

إرفنج ، واشنجتن

قصص الحمراء ، ترجمة إبراهيم الأبياري. القاهرة ، دار المعارف .

إسحاق الأقدم أو اليهودي المتجول

رحلاته ، عربها بتصرف عبده الشامي. القاهرة ، مطبعة الشباب .

إيڤا ، هويك

سنوات في اليمن وحضرموت ، ترجمة خيرى حماد. بيروت ، دار الطليعة، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م

بكنغهام ، جيمس

رحلتي إلى العراق ، ترجمة سليم طه التكريتي. بغداد ، دار البصري ، ١٩٦٩ .

بلاروين ، روجيه

في بلاد العراة ، ترجمة مختار الجوهري. القاهرة ، دار الجوهري للنشر ، د.ت. ١٣٤ ص (المكتبة الصحفية)

بلنت ، آن

رحلة إلى بلاد نجد ، ترجمة محمد أنعم غالب . الرياض ، دار اليمامة ، ١٣٨٦ هـ/

١٩٦٧ م

بوركهارت ، جون لويس

١ - رحلاته في بلاد النوبة والسودان ، ترجمة فؤاد أندراوس . القاهرة ، مطبعة المعرفة ، د.ت.

٢ - رحلاته في بلاد سورية الجنوبية ، ترجمة أنور عرفات. المطبعة الأردنية ، ١٩٦٩.

بولو ، ماركو

رحلاته ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧.

بيرد ، ريتشارد

قاهر القطب الجنوبي ، ترجمة محمد مصطفى هدارة. القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٠.

تسينجر ، ولفريد

فوق الرمال العربية ، عربه بتصرف محمد محمد عبد القادر. القاهرة ، القومية.

الحاج بابا الأصبهاني

اللطائف الأصبهانية والمنن التوفيقية في رحلة الحاج بابا الأصبهاني داخل الممالك الفارسية ، ترجمة محمد لطفي. القاهرة ، المطبعة الخيرية بمصر ، ١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م

دي نرفال ، جيرار

رحلة إلى الشرق ، ترجمة كوثر عبد السلام البحيري. القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

دين ، تيوتو واليزابيث مادوكس

مغامرة العمر ، ترجمة طاهر عبد الرحيم. القاهرة ، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ، د.ت.

ديولافوا

رحلة مدام ديولافوا إلى كلدة – العراق سنة ١٨٨١ / ١٢٩٩ هـ ، عربها علي البصري. بغداد ، مطبعة أسعد ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م

الربي بنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي (٥٦١ – ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ – ١١٧٣ م)

رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد. بغداد ، المطبعة الشرقية ، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥م

ريج ، كلوديوس جيمس

رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ ، ترجمة بهاء الدين نوري. بغداد ، مطبعة السكك الحديدية ، ١٩٥٦ .

زفايج ، ستيفان

ماجلان قاهر البحار. القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥١. ٢٢٣ ص

سميث ، ولتر بيدل

ثلاث سنوات في موسكو ، ترجمة محمد المعلم. القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٥٤. ٤ ، ٤٧٢ ص

طافور

رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، ترجمة حسن حبشي. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨.

العرابي ، محمود حسني

٨٩ شهرا في المنفى ، ترجمة جمال العرابي. ط٢ القاهرة، دار المستقبل ، ١٩٤١ .

العظم ، صادق باشا المؤيد

رحلة الحبشة ، تعريب رفيق بك العظم وحقي بك العظم. القاهرة ، مطبعة الجويدة، ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م.

ڤيرن ، جول

حول العالم في ثمانين يوما ، ترجمة فاروق أبو شرا . بيروت، مطابع معتوق إخوان ، د.ت.

كارن ، جون

رحلة لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، تعريب رئيف خوري. بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٤٨.

كاسون ، ليونيل

رواد البحار ، ترجمة جلال مظهر. القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٦.

المنشئ البغدادي

رحلة المنشئ البغدادي السيد محمد بن السيد أحمد الحسيني ، ترجمة عباس العزاوي. بغداد ، طبع شركة التجارة والطباعة ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م

ناصر خسرو علوي

سفر نامة ، ترجمة يحيى الخشاب. القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥. ٨ ، ٢٤ ، ١٣٤ ص

نيبور

رحلته إلى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمة محمود حسين الأمين. بغداد ، دار الجمهورية للنشر والطبع ، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م

هاو ، سونياي

في طلب التوابل ، ترجمة محمد عزيز رفعت. القاهرة ، نهضة مصر ١٩٥٧.

هايردل ، ثور

رحلات رع ، تلخيص ميشيل تكلا. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٣. (اقرأ – ٣٦٢)

هيمنج ، ايلين

مغامرات في افريقيا ، ترجمة فاروق خورشيد. القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٥٦. ١٧١ص

هيرودوت

هيرودوت في مصر ، ترجمة وهيب كامل. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤٦.

وَرْني الفرنساوي ، يوليوس

الرحلة الجوية في المركبة الهوائية ، ترجمة إلياس إليان سركيس. بيروت ، مطبعة الأدباء المرسلين اليسوعيين ، ١٨٧٥.

وطسن ، إليزابيث ج .

قصص الرحالة والكشافين ، ترجمة أحمد خاكي وإدوارد رياض. القاهرة، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية ، ١٩٥٣. ٢ ، ١٢٠ ص

ولسن ، أندرو

في قلب أفغانستان ، تعريب عمر الديراوي. بيروت ، دار الشمالي .

وليامس ، أ . د .

أميركي في البلاد العربية ، تعريب عمر أبو النصر. بيروت ، مكتبة المعارف .

المراجع

ابن النديم ، محمد بن إسحاق

الفهرست. طهران ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١

أحمد رمضان

الرحلة والرحالة المسلمون. جدة ، دار البيان العربي .

التنوخي ، المحسن بن علي

الفرج بعد الشدة. بيروت ، دار صادر ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م

جورج غريب

أدب الرحلة : تاريخه وأعلامه . ط٣ بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ .

حسني محمود حسين

أدب الرحلة عند العرب. القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .

حسين فوزي

حديث السندباد القديم. القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٣ .

زكي محمد حسن

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. القاهرة ، دار المعارف. ١٩٤٥ .

السكري ، الحسن بن الحسين

شرح أشعار الهذليين. القاهرة ، مطبعة المدني.

شوقي ضيف

الرحلات. القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٦ .

الصولي ، محمد بن يحيى

أخبار أبي تمام. القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م

ضياء الدين العلوي

الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر ، ترجمة عبد الله يوسف الغنيم.

عبد الرحمن حميدة

أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم . دار الفكر

كراتشكوفسكي ، أغناطيوس يوليانوفتش

تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم . ط٢ بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م

المقدسي ، محمد أحمد المقدسي البشاري

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦ .

ناصر عبد الرازق الموافي

الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري : دراسة فنية. رسالة ماجستير قدمت إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة .

نفيس أحمد

جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة فتحي عثمان .

نقولا زيادة

الرحالة العرب. القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٦ .

اليعقوبي ، أحمد بن إسحاق اليعقوبي الإصبهاني (ابن واضح)

البلدان. النجف ، المطبعة الحيدرية .

